المعجزة وكرامات الأولياء

للإمام العلامة تقي الدين
ابن تيمية
ولد سنة ٦٦١ وتوفي سنة ٧٢٨هـ
رحمه الله تعالى

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

المعجزة
وكرامات الأولياء

للإمام تقي الدين بن تيمية

دراسة وتحقيق
مصطفى عبد القادر عطا

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

لقمان: ٣٤.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحرِ﴾.

الأنعام: ٥٩.

صدق الله العظيم

الإهداء

إلى منبع الحب والحنان

إلى ملجأي من الخوف إلى الأمان

إلى مصدر الوحي والإلهام

إلى منْ وُضِعَتْ لها الجنة تحت الأقدام

إلى . . . . أمي

لعلي أحظى بدعاها، وأنال رضاها.

مصطفى عبد القادر عطا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا. أرسله بين يدي الساعة بشيراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه سراجاً منيرا، فهدى به من الضلالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغي، وفتح به أعيناً عميا، وآذاناً صما، وقلوباً غلفا. فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه.

أحمدك يا رب بما حمدت به نفسك، فقد خشعت لك الأصوات، وخمدت الجوارح، وسكن اضطراب الروح.

سبحانك أنت كما أثنيت على نفسك، لا إله إلا أنت.

اللهم إني أستلهمك الصواب، في خطرات النفس، وهمسات القلب، وسبحات الروح، لتهدينا إلى الصواب، وتجنبنا العقاب.

أما بعد: فإن من الأمور الهامة التي لا بد لكل من آمن بالله رباً، وبمحمداً ﷺ رسولاً، هو أن يعلم من دينه ما يستطيع به أن يكون موحداً لله تعالى حق التوحيد.

ومن أبرز الموضوعات التي يجدر تناولها بالتحليل والتدقيق، هو موضوع الوحدانية في العبادة.

الوحدانية في العبادة:

فالوحدانية في العبادة تعني:
أن يعبد الإنسان الله سبحانه وتعالى، ولا يعبد سواه. فالإسلام هو الإستسلام لله وحده، فمن استسلم لغير الله سبحانه وتعالى فقد أشرك به.

كما أن الوحدانية في العبادة تعني أيضاً أن ينتهج الإنسان منهج التشريع الإسلامي وما جاء في القرآن والسنة، وألا نبتدع في الدين ما هو ليس منه.

الابتداع في الدين:

يقول الإمام ابن تيمية: والدعاء من جملة العبادات، فمن دعا المخلوقين من الموتى والغائبين، واستغاث بهم، كان مبتدعاً في الدين، مشركاً برب العالمين، متبعاً غير سبيل المؤمنين، ومن سأل الله بالمخلوقين، أو أقسم عليه كان بالمخلوقين مبتدعاً بدعة ما أنزل بها من سلطان[1].

ولعل ما هو شائع في عصرنا هذا ظاهرة التقرب إلى الله بالأولياء الصالحين، ومما لا شك فيه أن مثل هذا الموضوع يستحق بل يحتاج إلى الدراسة والتحليل، للوقوف على حقيقة هذا الفعل.

ولقد أثار هذا الموضوع إنتباه الكثير من علماء القرن السابع والقرن الثامن، فكان من هؤلاء العلماء الإمام الجريء تقي الدين بن تيمية رحمه الله.

إقرار ابن تيمية بكرامة الأولياء:

خاض الإمام المجتهد في هذا الموضوع وبحث فيه، بما له من علم واسع، وتَبحُر في الدين، فنجده يقر بكرامة يعطيها الله سبحانه وتعالى لبعض الناس، فتجري على أيديهم خوارق العادات، هذه الخوارق تكون للأنبياء وغيرهم.

---

(١) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، لابن تيمية، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان. ص ١٠٠ وما بعدها.

(ولقد قسم ابن تيمية الخوارق إلى معجزات وهي ما يكون على أيدي النبيين من آيات باهرة مقرونة بالتحدي؛ وهذه الخوارق لا تكون إلا للخير ونفع الناس؛ لأنها لإثبات رسالة الرسول وتكلمه عن الله تعالى.

وأما ما يجري على أيدي غير الرسل؛ فيقسمه ابن تيمية إلى أقسام ثلاثة، فيقول:

«الخارق إن حصل به فائدة دينية كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً، وإن كان على وجهه يتضمن منهياً عنه نهي تحريم أو تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض».

ويرى أن الخوارق للعادة كما تجري على أيدي الصديقين الصالحين تجري على أيدي غيرهم، ومن الخوارق للعادة المتضمنة لأمر مطلوب دعوة الله لإقامة العدل؛ ومن المنهى عنه أن يدعو على غيره بما لا يستحقه.

ويتلخص من هذا أن الخارق محمود في الدين أو مذموم في الدين ومباح لا محمود ولا مذموم، فإن كان فيه منفعة كان نعمة، ويسمى كرامة.

والكرامة لا تعطي بذاتها فضلاً، ويرى أن من أوتي الإستقامة على الجادة أفضل ممن أوتي الكرامة، ولذا ينقل عن أبي الجوزجاني تلك الكلمة الحكيمة: «كن طالباً للإستقامة لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الإستقامة»)[1].

الله يعطي من يشاء[2]:

العلم هو فهم أسرار الله في كلماته بإلهام من الله سبحانه وتعالى، فالعلم ليس

---

(١) ابن تيمية، حياته وعصره، آراؤه وفقهه. للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ص ٣١٧، ٣١٨ بتصرف واختصار.

(٢) تسخير الجن وكرامات الأولياء، الشيخ محمد متولي الشعراوي، دار المسلم، ص ٢٢، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٠ بتصرف واختصار.

ذاتياً في الإنسان، بل هو بالتحصيل، يشترك في التحصيل جميع من حصَّله.

أما العلم الآخر؛ فهو مخصوص ببعض الناس، لا يشترك فيه كل الناس، فهو لا يعلم غيباً، لكنه يُعلَم غيباً.

فإذا كان الله سبحانه وتعالى هو الذي يطلع بعض أحبابه على شيء من غيبه، فإنما ذلك ليعلم عباده-أنه سبحانه وتعالى يستطيع أن يعلم بعض خلقه منه مباشرة، فيقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِن لدُنَّا عِلْماً﴾[1].

فالذي أصفى لله الود فسيعطيه خصوصيات، هذه الخصوصيات لا بد أن تكون خارقة للقانون العام والعادات، لكنه سبحانه وتعالى لا يعطي تلك الخصوصيات عطاءً مطلقاً؛ بمعنى أن من أُعطِيَ تلك الخصوصيات لا يستطيع فعل كل شيء، أو علم كل شيء، لكن الله سبحانه وتعالى يعطيه متى شاء، ويمنع عنه متى شاء.

فالله سبحانه وتعالى يعطي أولياءه بقدر ما يستديم حاجتهم إليه دائماً، لئلا يفتنوا.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ، وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ ماذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[2].

هذا ما اختص الله به وحده، ولا يطلع عليه أحد إلا بإذنه، وليس له مقدمات يمكن للذكي أن يستخدمها ليعلمها، وبقية الغيوب لها مقدمات يعرفها الذكي. أما ما اختص الله بعلمه، والمذكور في الآية السابقة وآية ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحرِ﴾[3] فليس لها مقدمات، بل هي إفاضة مباشرة.

---

(١) سورة: الكهف: آية ٦٥.

(٢) سورة: لقمان: آية ٣٤. (٣) سورة: الأنعام: آية ٥٩.

لا تلازم بين الكرامة والولاية[1]:

وينتهي ابن تيمية من بحثه في الكرامات والأولياء إلى أن الولاية لله ليست ملازمة لخوارق العادات، بل قد يكون ولياً وليس له أي خارق، ولا يجري الله على يديه أي أمر من الأمور الخارقة للعادة؛ كما قد يجري الله على يدي شخص أموراً خارقة وليس مطيعاً لله، فلا يكون ولياً.

والأساس في ذلك أن ولاية الله تعالى مذكورة في مثل قوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[2] هي التقوى والإيمان كما عرفها الله سبحانه، إذ قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾[3]؛ وقال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾[4].

وقد روى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: يقول الله تعالى: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة. وما تقرب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يسعى.

وبهذا كله يتبين أن ولي الله الحق هو المؤمن التقي، لا الذي تجري على يديه خوارق العادات، وأن من تجري على يديه خوارق العادات قد يكون غير ولي إذا لم تتحقق عناصر التقوى والإيمان.

هذا ومن جرت على يديه خوارق العادات يخطىء ويصيب، فليسوا على صواب دائماً، ويقول في ذلك تقي الدين: (وأهل المكاشفات، والمخاطبات

---

(١) ابن تيمية، حياته وعصره، آراؤه وفقهه، للإمام محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي. ص ٣١٨، ٣١٩ باختصار وتصرف.

(٢) سورة: يونس: آية ٦٢. (٣) سورة: فصلت: آية ١٨.

(٤) سورة: المائدة: آية ٥٥

يصيبون تارة ويخطئون أخرى كأهل النظر والاستدلال في موارد الإجتهاد.......... إلخ).

وهكذا يتناول الإمام ابن تيمية موضوع المعجزات والكرامات بالتحليل والتدقيق، وبإسلوب قويم، وحجج قوية، وأدلة واضحة، أترك القارىء يتناول سطور كتابه هذا والله المعين إلى الصواب.

الإمام ابن تيمية في سطور

نسبه ومولده:

هو أحمد تقي الدين أبو العباس بن الشيخ شهاب الدين أبي المحاسن عبد الحليم بن الشيخ مجد الدين أبي البركات عبد السلام بن أبي محمد عبد الله ابن أبي القاسم الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن عبد الله، الملقب بابن تيمية[١].

ولد في العاشر من شهر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة هجرياً في مدينة حران، ثم هاجر مع أسرته إلى دمشق بسبب الغزو التتري لمدينة حران.

كان نسبه إلى قبيلة حران، فيُعلَم من هذا أنه لم يكن عربياً، والأرجح أنه كان كردياً[٢].

---

(١) يقول الإمام محمد أبو زهرة: اختلف العلماء في علة تسمية الأسرة بابن تيمية، فقيل: ان جده محمد بن الخضر حج على درب تيماء، فرأى هناك طفلة إسمها تيمية، ثم رجع فوجد امرأته ولدت بنتاً فسماها تيمية. وقيل: أن جده محمداً كانت أمه واعظة وكان إسمها تيمية، فنسبت الأسرة إليها وعرفت بها (المرجع السابق، ص ١٧).

(٢) أنظر: فوات الوفيات ١: ٣٥ ـ ٤٥. والمنهج الأحمد (خط). والدرر الكامنة ١: ١٤٤. والبداية والنهاية ١٤: ١٣٥. وابن الوردي ٢: ٢٨٤. وآداب اللغة ٣: ٢٤٣. والنجوم الزاهرة ٩: ٢٧١. ودائرة المعارف الإسلامية ١: ١٠٩. والتبيان (خط). وتعليق على مخطوطة من «شرح العقيدة الأصفهانية» بخط محمود شكري الآلوسي. والأعلام للزركلي ١: ١٤٤.

نشأته وحياته:

نشأ ابن تيمية نشأة علمية، فكان أبوه على قدر كبير من العلم، فكان ذلك حافزاً له، ومقوماً أساسياً ساعده على تحصيل العلم والتعمق فيه. هذا فضلاً على أن جده مجد الدين كان عالماً جليلاً من علماء الفقه.

كانت لهذه البيئة التي نشأ فيها ابن تيمية أثراً كبيراً في توجيهه الوجهة العلمية الصحيحة، فاتجه إلى العلم، فحفظ القرآن صغيراً، ثم حفظ الحديث واللغة، وتعمق في الفقه.

كان ابن تيمية يتميز على من هم في سنه، فكان مجداً مجتهداً، ذكي نابغ، ذو ذاكره حادة، سريع الحفظ، متيقظ لماح.

لم يتوقف ابن تيمية على دراسة الحديث والفقه فقط، بل درس علوماً أخرى مثل الرياضة، والعلوم العربية بصفة خاصة، فلم يترك باباً من أبواب العلم إلا وطرقه.

العلماء يتحدثون عن ابن تيمية:

قال الإمام محمد أبو زهرة: قال فيه أحد معاصريه: قد ألان الله له العلوم، كما ألان لداود الحديد، كان إذا سئل عن فن من العلم ظن الرائي والسامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أن أحد لا يعرفه مثله، وكان الفقهاء من سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لم يكونوا عرفوه قبل ذلك، ولا يعرف أنه ناظراً أحداً فانقطع منه، ولا تكلم في علم من العلوم، سواء أكان من علوم الشرع أم من غيرها. إلا فاق فيه أهله والمنسوبين إليه، وكان له اليد الطولى في حسن التصنيف[1].

وقال فيه المحدث الإمام ابن دقيق العيد: رأيت رجلاً جمع العلوم كلها بين

---

(١) انظر المرجع السابق ص ٢٨.

عينيه، يأخذ منها ما يريد، ويدع ما يريده[1].

وعن صفاته الجسدية يقول الإمام الذهبي: «كان أبيض، أسود الرأس واللحية، وشعره إلى شحمة أذنيه، كأن عينيه لسان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحاً، سريع القراءة تعتريه حدة، لكنه يقهرها بالحلم، ولم أر مثله في ابتهالاته واستعانته بالله وكثرة توجهه».

كانت حياته مليئة بالأحداث التي لمع من خلالها اسمه، فقد توفي والده سنة ٦٨٢ وكان وقتئذ في الحادي والعشرين من عمره، فتولى التدريس في الجامع الكبير بدمشق بدلاً من والده، وكان ذلك بعد سنة من وفاته، فاتجهت إليه الأنظار، واستمع إليه الكثير، وأصبح يذكر اسمه في المجالس العلمية.

شيوخه:

تلقى الإمام ابن تيمية العلم من رجال العلماء من ناحية، ومن قراءة ودراسة الكتب والبحث في مادتها العلمية من ناحية أخرى.

فقد تلقى العلم من أبيه بملازمته له، حتى توفي والده وهو في الحادي والعشرين من عمره، ثم تلقى العلم بعد ذلك من شيوخ علماء دمشق.

فقد بلغ (شيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتين، وسمع مسند الإمام أحمد عدة مرات، وسمع الكتب الستة الكبار والأجزاء، ومن مسموعاته معجم الطبراني)[2].

و (لقد سمع غير كتاب عن غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالية، أما دواوين الإسلام الكبار كمسند الإمام أحمد، وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذي، وسنن أبي داود السجستاني، والنسائي، وابن ماجة، والدارقطني، فإنه

---

(١) انظر: كتاب القول الجلي من ضمن مجموعة تراجم ص ١٠١.
(٢) انظر: العقود الدرية.

سمع كلاً منهما مرات عدة، وأول كتاب حفظه في الحديث: الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي.

وطلب بنفسه قراءة وسماعاً من خلق كثير، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ)[1].

وهكذا نجد أن ابن تيمية قد تلقى العلم من شيوخ العلماء سماعاً، وبخاصة الحديث.

هذا بالإضافة إلى حضوره مجالس علماء دمشق، والعلماء الذين يفدون إليها، فيستفيد منهم إستفادة العالم الواعي.

ويقول الإمام محمد أبو زهرة بعد عرضه لشيوخ ابن تيمية تفصيلاً: «من هذا السياق يتبين أن ابن تيمية تلقى العلم من شيوخه أولاً، ثم من الكتب ثانياً، وقد تلقى علم الكتب أكثر مما تلقى علم الشيوخ؛ فإن الأولين وجهوه في صدر حياته، ووقفوه، واكتفى منهم بعد أن شدا بأن سمع كتب الحديث منهم ليتلقى الإسناد كاملاً؛ وليكون أخذه الحديث بالسماع، لا بمجرد القراءة في الكتب التي قد يكون فيها تصحيف أو تحريف، فيأخذ الحديث محرفاً.

أما العلوم الأخرى فقد اتجه فيها بنفسه، وشأنه في ذلك كشأن عالم مستقل الفكر والرأي والنظر، يقرأ على الرجال القليل، ثم يعتمد على نفسه ودراسته الخاصة وبحثه في الكثير، فيكون نفسه، ويوجه قلبه وفكره، ولهذا نقول أن من تلقى عليهم من الماضين الذين لم يشافههم أكثر كثرة كبيرة من الشيوخ الحاضرين الذين لقيهم، وشافههم[2].

كتبه:

لقد خلف لنا الإمام تقي الدين بن تيمية العديد من المؤلفات في شتى مجالات

---

(١) أنظر: الكواكب الدرية.

(٢) ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه وفقهه للإمام محمد أبو زهرة، ص ١١٨.

العلم، منها ما هو في الفقه والأصول، وما هو في التفسير، وأخرى في علم الكلام، وطائفة أخرى من الرسائل كانت رداً على خصومه.

أما عن عدد هذه المؤلفات فقد ورد في «الدرر الكامنة» أنها تزيد عن أربعة آلاف كراسة، أما في «فوات الوفيات» ورد أنها تبلغ ثلاث مائة مجلد.

ومن هذه التصانيف:

١ ـ الجوامع (في السياسة الإلهية، والآيات النبوية) ويسمى أيضاً «السياسة الشرعية».
٢ ـ الفتاوى. في خمس مجلدات.
٣ ـ الإيمان.
٤ ـ الجمع بين النقل والعقل.
٥ ـ منهاج السنة.
٦ ـ الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان.
٧ ـ الواسطة بين الحق والخلق.
٨ ـ الصارم المسلول على شاتم الرسول.
٩ ـ مجموع رسائل (٢٩ رسالة).
١٠ ـ نظرية العقد (كما سماه الناشر) لكن إسمه في الأصل: «قاعدة في العقود».
١١ ـ تلخيص كتاب الاستغاثة، ويعرف بـ «الرد على البكري».
١٢ ـ الرد على الأخنائي.
١٣ ـ رفع الملام عن الأئمة الأعلام (رسالة).
١٤ ـ شرح العقيدة الأصفهانية.
١٥ ـ القواعد النورانية الفقهية.
١٦ ـ مجموع الرسائل والمسائل (خمسة أجزاء).
١٧ ـ التوسل والوسيلة.
١٨ ـ نقض المنطق.

١٩ ـ السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية.

٢٠ ـ الفتاوى.

وغير ذلك من الكتب التي لا يسعني ضيق الموضع لذكرها هنا.

وفاته:

ظلت الأحقاد تلاحق شيخ الإسلام ابن تيمية حتى زجت به أخيراً في السجن بقلعة دمشق، فمُنِعَ عن الكتابة، ضُيِّقَ عليه الخناق، وزادت عليه الأزمة والقيود، فأراد الله سبحانه وتعالى ألا يطيل على تلك النفس الكريمة، فقبض روحه في العشرين من شوال سنة ٧٢٨ هـ.

نفع الله الإسلام والمسلمين بعلمه، ورحمه رحمة واسعة، وأسكنه فسيح جناته.

الكتاب ومنهج التحقيق

يشتمل هذا الكتاب على رسالتين قيمتين:

الأولى: رسالة في المعجزات والكرامات.

والثانية: رسالة في شرح حديث «كان الله ولم يكن شيء قبله».

وأصل هاتان الرسالتان من مجموع الرسائل والمسائل للإمام ابن تيمية.

تقع الرسالة الأولى في الجزء الحادي عشر من صفحة ٣١١ إلى صفحة ٣٦٢.

أما الرسالة الثانية فتقع في الجزء الثامن عشر في صفحة ٢١٠ وما بعدها.

منهج التحقيق:

١ ـ قمت بنسخ الرسالتين من مطبوعتها، نشر مكتبة ابن تيمية، وصححتها على أصولها المخطوطة، وأشرت إلى ذلك التصحيح في الهامش.

٢ ـ قمت بوضع عناوين للكتاب ليسهل على القارىء فهمه وتناوله، وليتم النفع به.

٣ ـ قمت بتخريج الآيات القرآنية ومراجعتها على المصحف.

٤ ـ قمت بتخريج الأحاديث النبوية على الكتب المعتمدة.

٥ ـ قمت بالترجمة للأعلام الواردة في الكتاب مع ذكر مصادر الترجمة.

٦ ـ قمت بتفسير بعض الكلمات الصعبة الواردة في الكتاب.

٧ ـ قمت بالتعليق على بعض الموضوعات الهامة التي كان لا بد أن توضح بمزيد من التفصيل.

٨ ـ قمت بوضع دراسة عن معنى الواحدانية في العبادة، ومعنى الكرامة والولاية وآراء بعض العلماء في ذلك.

ثم أتبعتها بدراسة عن الإمام ابن تيمية: مولده، ونسبه، ونشأته، وشيوخه، وكتبه، ووفاته.

والله نسأل أن يتوب علينا من كل ذنب، وأن يجعلنا أهلاً لرحمته، وأن ينفع به المسلمين في كل مكان، وأن يجعله خالصاً لوجهه، وابتغاء مرضاته، إنه سميع قريب مجيب.

مصطفى عبد القادر أحمد عطا

١٢ من رجب ١٤٠٥ هـ

الأهرام في: ٢ إبريل ١٩٨٥ م

المعجزة وكرامات الأولياء

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

قال الشيخ الإمام العالم العلامة، العارف الرباني، المقذوف في قلبه النور القرآني، شيخ الإسلام، تقي الدين أبو العباس أحمد بن تيمية رضي الله عنه وأرضاه:

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه، كما يحب ربنا ويرضاه، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا إله سواه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتباه وهداه، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين.

قاعدة شريفة في المعجزات والكرامات.

المعجزة والكرامة

اسم المعجزة يعم كل خارق للعادة في اللغة، وعرف الأئمة المتقدمين كالإمام أحمد بن حنبل، وغيره، ويسمونها الآيات. لكن كثيراً من المتأخرين يفرق في اللفظ بينهما، فيجعل المعجزة للنبي، والكرامة للولي، وجماعهما: الأمر الخارق للعادة.

* * *

حظوظ البشر من الخوارق:

وصفات الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى. وإن شئت أن تقول: العلم والقدرة.

والقدرة إما على الفعل، وهو التأثير، وإما على الترك، وهو الغنى، والأول أجود. وهذه الثلاثة لا تصلح على وجه الكمال إلا لله وحده، فإن الذي أحاط بكل شيء علما، وهو على كل شيء قدير، وهو غني عن العالمين.

وقد أمر الرسول ﷺ أن يبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله:

﴿قُلْ لا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ ولا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[1].

وكذلك قال نوح عليه السلام. فهذا أول أولي العزم، وأول رسول بعثه الله

---

(١) سورة: الأنعام: آية ٥.

تعالى إلى أهل الأرض، وهذا خاتم الرسل، وخاتم أولي العزم، يتبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبون الرسول ﷺ بعلم الغيب كقوله:

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الوَعْدُ إن كُنتُم صَادِقِين﴾(١).

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاها قُلْ إنَّما عِلْمُها عِندَ رَبّي﴾(٢).

وتارة بالتأثير، كقوله:

﴿وَقَالُوا لَن نؤمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض يَنبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِن نخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّر الأنهَار خِلاَلَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كما زَعمت عَلَيْنا كِسَفاً أَوْ تَأتِيَ بِاللَّهِ وَالمَلائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِن زُخْرُفٍ أَوْ ترْقَى في السَّمَاءِ وَلَن نُؤمِنْ لِرُقِّيكَ حَتَّى تُنَزِلَ عَلَيْنَا كِتاباً نَقرَؤه قُل سُبحانَ ربّي هلْ كُنتُ إلاَّ بشَراً رَسُولاً﴾(٣).

وتارة يعيبون عليه الحاجة والبشرية كقوله:

﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا. أو يلقى إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها﴾(٤).

فأمره أن يخبر أنه لا يعلم الغيب، ولا يملك خزائن الله، ولا هو ملك غني عن الأكل والمال، إن هو إلا متبع لما أوحى إليه، واتباع ما أوصى إليه هو الدين، وهو طاعة الله وعبادته، علماً وعملاً، بالباطن والظاهر.

وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله تعالى، فيعلم منه ما علمه إياه، ويقدر منه على ما أقدره الله عليه، ويستغني عما أغناه الله عنه من الأمور المخالفة للعادة المطردة، أو لعادة غالب الناس.

فما كان من الخوارق من باب العلم فتارة بأن يسمع العبد ما لا يسمعه غيره، وتارة بأن يرى ما لا يراه غيره يقظة ومناماً، وتارة بأن يعلم ما لا يعلمه غيره وحياً

---

(١) يونس: ٤٨.
(٢) الأعراف: ١٨٧.
(٣) الإسراء: ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣.
(٤) الفرقان: ٧، ٨.

وإلهاماً، أو إنزال علم ضروري، أو فراسة[1] صادقة، ويسمى كشفا[2] ومشاهدات، ومكاشفة ومخاطبات.

---

(١) الفراسة: بالكسر، في الحديث: «اتقوا فراسة المؤمن»؛ قال ابن الأثير: يقال بمعنيين: أحدهما ما دل ظاهر الحديث عليه، وهو ما يوقعه الله تعالى في قلوب أوليائه فيعلمون أحوال بعض الناس بنوع من الكرامات وإصابة الظن والحدس، والثاني نوع يُتَعلَّمُ بالدلائل والتجارب والخلق والأخلاق، فتعرف به أحوال الناس، وللناس فيه تصانيف كثيرة قديمة وحديثة؛ واستعمل الزَّجَّاج منه أفعل فقال: أفرس الناس، أي أجودهم وأصدقهم فراسة ثلاثة: امرأة العزيز يوسف، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وابنة شعيب في موسى، على نبينا وعليهم الصلاة والسلام، وأبو بكر في تولية عمر بن الخطاب، رضي الله عنهما. قال ابن سبدة: فلا أدري أهو على الفعل أم هو من باب أحنك الشاتين؛ وهو يتفرس، أي يتثبت وينظر؛ تقول منه: رجل فارس النظر. (لسان الميزان، ابن منظور، ٣٧/٣٣٧٩، دار المعارف).

فالفراسة إذن هي معرفة بواطن الأمور من ظواهرها.

(٢) الكشف: معناه في العلم إحدى خطوات المنهج العلمي، ويهتدي فيها الذهن إلى فرض أو تفسير علمي.

أما عند الصوفية: هو الإطلاع على ما وراء الحجاب من المعاني الغيبية والإمور الحقيقية وجوداً أو شهوداً. (المعجم الفلسفي: ١٥٣).

والكشف هو منهج المعرفة الصوفية.

يقول الأستاذ الدكتور أبو الوفا التفتازاني في بحثه لتصوف الإمام الغزالي:

والمنهج الذي اصطنعه الصوفية ويعرف عندهم بالكشف منهج ذوقي خاص، وهو إدراك وجداني مباشر يختلف عن الإدراك الحسي المباشر والإدراك العقلي المباشر، أو الحدس.

ويعرف الطوسي الكشف قائلاً: «الكشف بيان ما يستتر على الفهم فيكشف عنه للعبد كأنه رأى العين».

ويقابل الكشف المباشر ذلك عند الغزالي الاستدلال العقلي الذي ينتقل فيه الذهن من معنى إلى معنى، أو من مقدمات إلى نتائج، عند المتكلمين والفلاسفة، فالمعرفة «قد تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهي على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب» فالصوفية «انكشف لهم الأمر وخاص على صدورهم النور لا بالتعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل بالزهد في الدنيا، والتبري من علائقها، وتفريغ القلب من شواغلها، =

فالسماع مخاطبات، والرؤية مشاهدات، والعلم مكاشفة، ويسمى ذلك كشفاً ومكاشفة، أي: كشف له عنه.

وما كان من باب القدرة فهو التأثير. وقد يكون همة وصدقاً ودعوة مجابة.

وقد يكون من فعل الله الذي لا تأثير له فيه لحال، مثل هلاك عدوه بغير أثر منه، كقول النبي ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وإني لأثأر لأوليائي كما يثأر الليث المجرد»[1]. ومثل تذليل النفوس له، ومحبتها إياه، ونحو ذلك.

وكذلك ما كان من باب العلم والكشف، قد يكشف لغيره من حالة بعض أمور، كما قال النبي ﷺ في المبشرات: «هي الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح، أو ترى له»[2]. وكما قال النبي ﷺ: «أنتم شهداء الله في الأرض»[3].

= والإقبال بكنة الهمة على الله تعالى، فمن كان لله كان الله له» و«كل حكمة تظهر من القلب بالمواظبة على العبادة من غير تعلم، فهي بطريق الكشف والإلهام». ويعتبر الكشف عند الغزالي أرقى مناهج المعرفة.

(انظر: مدخل إلى التصوف الإسلامي، الدكتور أبو الوفا التفتازاني، دار الثقافة ص ٢٠٩. واحياء علوم الدين للإمام الغزالي ٣/٧، ١٦، ٢٠. واللمع ص ٤٢٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق باب: ٣٨، كما أخرجه ابن ماجه في سننه في الفتن باب: ١٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب بدء الوحي باب: ٣، وفي كتاب التفسير سورة ٩٦، وفي كتاب التعبير باب: ١، ٥. وأخرجه مسلم في صحيحه حديث: ٣٠٧، ٣٠٨ من كتاب الصلاة، وفي كتاب الرؤيا، وحديث: ٣، ٤، ٦. وأبو داود في سننه في كتاب الصلاة باب ١٤٨. والترمذي في سننه في كتاب الرؤيا باب ٣٢٢، وفي كتاب التفسير سورة ١، ٢. والنسائي في سننه في كتاب التطبيق باب: ٨، ٦٣. وابن ماجة في سننه في كتاب الرؤيا باب: ١. والدارمي في مسنده في كتاب الصلاة باب ٧٧، وفي كتاب الرؤيا ٣ ـ ٥. ومالك في الموطأ في كتاب الرؤيا باب ٤. والإمام أحمد بن حنبل في المسند ١/٢١٩، ٣١٥؛ ٢/٥٠، ١١٩، ١٢٢، ١٣٧، ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٦٩، ٣١٤، ٣٢٥، ٣٤٢، ٣٦٩، ٤٣٨، ٤٩٥، ٥٠٧؛ ٥/٤٤، ٥٠، ٣١٥، ٣٢١، ٣٢٥؛ ٦/١٢٩، ١٥٣، ٢٣٢، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٥٢. وجاء أيضاً في طبقات ابن سعد. وهو حديث صحيح.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الجنائز باب: ٨٥. ومسلم في صحيحه في كتاب =

وكل واحد من الكشف والتأثير قد يكون قائماً به، وقد لا يكون قائماً به، بل يكشف الله حاله، ويصنع له من حيث لا يحتسب. كما قال يوسف بن أسباط[1]: «ما صدق عبد إلا صنع له». وقال أحمد بن حنبل: «لو وضع الصدق على جرح لبرأ».

لكن من قام بغيره له من الكشف والتأثير فهو سببه أيضاً، وإن كان خرق عادة في ذلك الغير. ومعجزات الأنبياء، وأعلامهم، ودلائل نبوتهم تدخل في ذلك.

* * *

رسولنا يجمع كل أنواع الخوارق:

وقد جمع الله لنبينا محمد ﷺ جميع أنواع المعجزات والخوارق.

أما العلم والأخبار الغيبية والسماع والرؤية، فمثل إخبار نبينا ﷺ عن الأنبياء المتقدمين، وأممهم، ومخاطباته لهم، وأحواله معهم.

وغير الأنبياء من الأولياء وغيرهم بما يوافق ما عند أهل الكتاب الذين ورثوه

= الجنائز حديث: ٦٠. والترمذي في سننه في كتاب الجنائز باب: ٦٣. والنسائي في سننه في كتاب الجنائز باب: ٥٠. وابن ماجة في سننه في كتاب الجنائز باب: ٢٠، وفي كتاب الزهد باب: ٢٥. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/٢٦١، ٤٩٩، ٥٢٨؛ ٣/١٧٩، ١٨٦، ١٩٧، ٢٤٥، ٢٨١. كما رواه الطبراني في الكبير عن سلمة بن الأكوع.
وتمام الحديث: «....، والملائكة شهداء الله في السماء». قال الإمام السيوطي: حديث حسن.

(١) هو: يوسف بن أسباط الشيباني الزاهد الواعظ. عن محل بن خليفة وسفيان الثوري، وعنه المسيب بن واضح، وعبدالله بن خبيق الأنطاكي. وثقة يحيى بن معين. وقال أبو حاتم: لا يحتج به. وقال البخاري: كان قد دفن كتبه، فكان لا يجيء بحديثه كما ينبغي. مات سنة تسعين ومائة ونيف. (انظر: ميزان الاعتدال للذهبي ٤/٤٦٢، والطبقات الكبرى للشعراني ١/٥٢، ٥٣).

بالتواتر(١) أو بغيره، من غير تعلم له منهم.

وكذلك إخباره عن أمور الربوبية، والملائكة، والجنة والنار، بما يوافق الأنبياء قبله من غير تعلم منهم، ويعلم أن ذلك موافق لنقول الأنبياء، تارة بما في أيديهم من الكتب الظاهرة، ونحو ذلك من النقل المتواتر، وتارة بما يعلمه الخاصة من علمائهم.

وفي مثل هذا قد يستشهد أهل الكتاب، وهو من حكمة إبقائهم بالجزية(٢)، وتفصيل ذلك ليس هذا موضعه.

فإخباره عن الأمور الغائبة ماضيها وحاضرها هو من باب العلم الخارق، وكذلك إخباره عن الأمور المستقبلة، مثل مملكة أمة، وزوال مملكة فارس، والروم، وقتال الترك (٣)، وألوف مؤلفة من الأخبار التي أخبر بها، مذكور بعضها في كتب دلائل النبوة، وسيرة الرسول، وفضائله، وكتب التفسير، والحديث، والمغازي، مثل دلائل النبوة لأبي نعيم(٤)، والبيهقي(٥)، وسيرة ابن إسحاق(٦)، وكتب الأحاديث

---

(١) المتواتر: هو الخبر الذي رواه عدد كبير عن عدد كبير يستحيل اجتماعهم على الكذب، ويكون استنادهم في رواية الخبر إلى الحواس من رؤية أو سماع وخلافه، كأن يقولوا رأينا أو سمعنا. . ، والخبر المتواتر حكمه حكم العلم اليقين المشاهد رأي العين.

(٢) الجزية: هي مبلغ من المال يؤخذ من غير المسلين، الذين تتوفر فيهم شروط الذكورة والتكليف والحرية، فهي لا تؤخذ من المرأة، ولا الصبي، ولا العبد، ولا المجنون. وتقدر على كل شخص بما يناسب حاله وعلى قدر استطاعته. وفرض الجزية على الذميين مثل فرض الزكاة على المسلمين. وهي تؤخذ في مقابل حماية من يدفعها: للدفاع عنه ضد أي عدوان أو أذى، وفي مقابل تمتعهم بكافة الحقوق، ومنها حق الإنتفاع بالمرافق العامة مثلهم في ذلك مثل المسلمين.

(٣) حديث إخباره (ص) بمملكة أمته أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي، وإخباره بزوال مملكة فارس والروم أخرجه الشيخان، أما إخباره بقتال الترك فقد رواه البخاري وأحمد.

(٤) أبو نعيم الأصبهاني: (٣٣٦ ـ ٤٣٠ هـ = ٩٤٨ ـ ١٠٣٨ م) حافظ، مؤرخ، من الثقات في الحفظ والرواية. ابن خلكان ١ : ٢٦ وميزان الإعتدال ١ : ٥٢ ولسان الميزان ١ : ٢٠١.

(٥) أحمد بن الحسين البيهقي: (٣٨٤ ـ ٤٥٨ هـ = ٩٩٤ ـ ١٠٦٦ م) من أئمة الحديث، كان عالماً فقيهاً واسع الإطلاع. صنف زهاء ألف جزء، منها «دلائل النبوة». شذرات الذهب =

المسندة، كمسند الإمام أحمد، والمدونة، كصحيح البخاري[1]، وغير ذلك مما هو مذكور أيضاً في كتب أهل الكلام والجدل، كأعلام النبوة للقاضي عبد الجبار[2]، وللماوردي[3]، والرد على النصارى للقرطبي[4]، ومصنفات كثيرة جداً.

وكذلك ما أخبر عنه غيره، مما وجد في كتب الأنبياء المتقدمين، وهي في وقتنا هذا اثنتان وعشرون نبؤة، بأيدي اليهود والنصارى، كالتوراة[5] والإنجيل[6]،

= ٣: ٣٠٤ وطبقات الشافعية ٣: ٣ وابن خلكان ١: ٢٠.

(٦) محمد بن إسحاق: (. . . ـ ١٥١ هـ = . . . ـ ٧٦٨ م) من أقدم مؤرخي العرب. من أهل المدينة. له «السيرة النبوية» هذبها ابن هشام. تهذيب التهذيب ٩: ٣٨ وتذكرة الحفاظ ١: ١٦٣ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٨٨ والأعلام ٦: ٢٨.

(١) محمد بن إسماعيل البخاري: (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ = ٨١٠ ـ ٨٧٠م) حبر الإسلام والحافظ لحديث رسول الله (ص)، صاحب «الجامع الصحيح». المعروف بصحيح البخاري. وكان قد جمع نحو ست مئة ألف حديث اختار منها في صحيحه ما وثق برواته. وهو أول من وضع في الإسلام كتاباً على هذا النحو. وكتابه أوثق الكتب المعول عليها في الحديث. الأعلام ٦: ٣٤ وتذكرة الحفاظ ٢: ١٢٢ وتهذيب ٩: ٤٧.

(٢) عبد الجبار بن أحمد: (. . . ـ ٤١٥ هـ = . . . ـ ١٠٢٥م) قاص، أصولي. كان شيخ المعتزلة في عصره. وهم يلقبونه قاضي القضاة، ولا يطلقون هذا اللقب على غيره. له تصانيف كثيرة، منها: «تثبيت دلائل النبوة». تاريخ بغداد ١١: ١١٣ وطبقات المعتزلة ١١٢ والسبكي ٣: ٢١٩ والأعلام ٣: ٢٧٣.

(٣) علي بن محمد المَاوَرْدي: (٣٦٤ ـ ٤٥٠ هـ = ٩٧٤ ـ ١٠٥٨م) أقضى قضاة عصره. من العلماء الباحثين، أصحاب التصانيف الكثيرة النافعة، منها: «أدب الدنيا والدين»، و «أعلام النبوة». الأعلام ٤: ٣٢٧ و مفتاح السعادة ٢: ١٩٠.

(٤) محمد بن أحمد القرطبي: من كبار المفسرين، صالح متعبد. له كتاب «الجامع لأحكام القرآن». المعروف بتفسير القرطبي. مات سنة ٦٧١ هـ. الأعلام ٥: ٣٢٢.

(٥) انظر ـ مثلاً ـ الإصحاح الثامن عشر من سفر التثنية، الآية الخامسة عشرة وما بعدها. ولولا ضيق الموضع لكنت قد أتيت للقارىء بها هنا، ولذا فسأكتفي بذكر مواضع بعض البشارات به (ص)، حتى يرجع إليها من يشاء.

(٦) انظر على سبيل المثال إنجيل يوحنا ١٤: ١٥ ـ ١٨ و ١٦: ٧ ـ ١٤.

والزبور[١]، وكتاب أشعياء[٢]، وحبقوق[٣]، ودانيال[٤]، وأرمياء[٥].

وكذلك إخبار غير الأنبياء من الأحبار والرهبان[٦]، وكذلك إخبار الجن والهواتف المطلقة[٧]، وإخبار الكهنة، كسطيح، وشق[٨]، وغيرهما.

وكذلك المنامات وتعبيرها، كمنام كسرى وتعبير الموبذان[٩].

وكذا إخبار الأنبياء المتقدمين بما مضى، وما عبر هو من أعلامهم.

وأما القدرة والتأثير، فإما أن يكون في العالم العلوي أو ما دونه، وما دونه إما بسيط أو مركب. والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان وإما معدن وإما نبات، والحيوان إما ناطق وإما بهيم.

فالعلوي كانشقاق القمر[١٠]، ورد الشمس ليوشع بن نون[١١]، وكذلك ردها لما

---

(١) انظر المزمور المئة والتاسع والأربعون، والمزمور الثاني والسبعون.

(٢) انظر أشعياء ٤٢ : ١١ - ١٣.

(٣) انظر الإصحاح الثالث من سفر حبقوق.

(٤) انظر الإصحاح الثاني من سفر دانيال.

(٥) هو أرمياء بن حلقيا من سبط لاوي بن يعقوب، قيل: إنه الخضر عليه السلام، رواه الضحاك عن ابن عباس وهو غريب وليس بصحيح. البداية والنهاية ٢ : ٣٣.

(٦) سيرة ابن هشام ١ : ١٨٩.

(٧) البداية والنهاية لابن كثير ٢ : ٣٣٢.

(٨) البداية والنهاية ٢ : ١٦٢ - ١٦٣.

(٩) البداية والنهاية ٢ : ٢٦٨.

(١٠) انشقاق القمر متواتر، منصوص عليه في القرآن، مروي في الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة بحيث لا يمترى في تواتره. نظم المتناثر من الحديث المتواتر ٢١١، واللآلىء المتناثرة في الأحاديث المتواترة للزبيدي، تحقيق الاستاذ محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية.

(١١) قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر حدثنا أبو بكر عن هشام عن ابن سيرين عن أبي هريرة قال: قال رسول الله (ﷺ): «إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالي سار إلى بيت المقدس». انفرد به أحمد من هذا الوجه وهو على شرط البخاري. ويوشع بن نون هو =

فاتت عليا الصلاة والنبي ﷺ نائم في حجره إن صح الحديث. فمن الناس من صححه كالطحاوي[١]، والقاضي عياض[٢]، ومنهم من جعله موقوفاً كأبي الفرج بن الجوزي[٣]، وهذا أصح[٤]. وكذلك معراجه إلى السماوات[٥].

وأما الجو فاستسقاؤه، واستصحاؤه[٦] غير مرة، كحديث الأعرابي الذي في الصحيحين وغيرهما[٧]، وكذلك كثرة الرمي بالنجوم عند ظهوره[٨] وكذلك إسراؤه

= أحد أنبياء بني اسرائيل، قام بأعباء قومه بعد موسى وهارون. البداية والنهاية ١ : ٣١٩ ويشوع ١٠ : ١٣.

(١) أحمد بن محمد الطحاوي: (٢٣٩ - ٣٢١ هـ = ٨٥٣ - ٩٣٣ م) فقيه، انتهت إليه رياسة الحنفية بمصر، له كتب قيمة. ابن خلكان ١ : ١٩ والأعلام ١ : ٢٠٦.

(٢) القاضي عِيَاض: (٤٧٦ - ٥٤٤ هـ = ١٠٨٣ - ١١٤٩ م) عالم المغرب، وإمام أهل الحديث في وقته، له مؤلفات معتبرة. وفيات الأعيان ١ : ٣٩٢ وقضاة الأندلس ١٠١.

(٣) ابن الجَوْزي: (٥٠٨ - ٥٩٧ هـ = ١١١٤ - ١٢٠١ م) علامة عصره في التاريخ والحديث، كثير التصانيف. مفتاح السعادة ١ : ٢٠٧ ووفيات الأعيان ١ : ٢٧٩. والموقوف كما عرفه ابن الصلاح: هو ما يروى عن الصحابة رضي الله عنهم من أقوالهم وأفعالهم ونحوها، فيوقف عليهم ولا يتجاوز به إلى رسول الله (ﷺ).

(٤) قال ابن تيمية - رحمه الله - في موضع آخر: المحققون من أهل العلم والمعرفة بالحديث - يعلمون أن هذا الحديث كذب موضوع، وأورد رحمه الله طرقه واحدة واحدة ودرسها. وفي البداية والنهاية لابن كثير ٦ : ٩٠ - ١٠١ بحث ممتاز حول طرق هذا الحديث ومدى صحته، فمن شاء فليرجع إليه.

(٥) قصة الإسراء والمعراج ثابتة بنص القرآن والسنة المتواترة واتفاق العلماء. أنظر: نظم المتناثر من الحديث المتواتر ٢٠٧، واللآلىء المتناثرة للزبيدي، تحقيق محمد عبد القادر عطا.

(٦) (الاستسقاء) طلب السُّقْي. (والاستصحاء) طلب الصحو، وهو ذهاب الغيم، يقال: سماء صحو - أي لا غيم فيه، ويوم صاح.

(٧) عن أنس رضي الله عنه قال: [أصابت الناس سنة فبينا النبي (ﷺ) يخطب يوم الجمعة إذ قام أعرابي، فقال يا رسول الله: هلك المال، وجاع العيال، فادْع الله لنا، فرفع يديه وما نرى في السماء قزعة، فوالذي نفس بيده ما وضعهما حتى ثار السحاب أمثال الجبال، ثم لم ينزل من على المنبر حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته، فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد، =

من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى[1].

وأما الأرض والماء، فكاهتزاز الجبل تحته[2]، وتكثير الماء في عين تبوك[3]، وعين الحديبية[4]، ونبع الماء من بين أصابعه غير مرة[5]، ومزادة المرأة[6].

وأما المركبات فتكثيره للطعام غير مرة في قصة الخندق من حديث جابر[7]، وحديث أبي طلحة[8]، وفي أسفاره[9]، وجراب أبي هريرة[10]، ونخل جابر بن عبد الله[11]، وحديث جابر وابن الزبير في انقلاع النخل له وعوده إلى مكانه[12]، وسقياه لغير واحد من الأرض، كعين أبي قتادة[13]، وهذا باب واسع لم يكن الغرض هنا ذكر معجزاته بخصوصه، وإنما الغرض التمثيل.

* * *

= ومن بعد الغد، والذي يليه حتى الجمعة الأخرى، فقام ذلك الأعرابي أو غيره، فقال يا رسول الله: تهدم البناء وغرق المال، فادع الله تعالى لنا، فرفع يديه وقال: اللهم حوالينا ولا علينا، فما يشير بيده إلى ناحية من السحاب إلا انفرجت، وصارت المدينة مثل الجوبة]. أخرجه الستة إلا الترمذي.

(٨) البداية والنهاية ٣: ١٨. وابن هشام ١: ١٨٩.

(١) متواتر قرآناً وسنة. (٢) متواتر، كما أخبر القرطبي في الإعلام ٣٥٩.

(٣) رواه مسلم في صحيحه. (٤) تفرد به البخاري إسناداً ومتناً.

(٥) رواه البخاري ومسلم ومالك والنسائي والترمذي. وقد بلغ حد التواتر كما قال النووي والقرطبي وعياض.

(٦) رواه البخاري ومسلم. (٧) أخرجه البخاري ومسلم.

(٨) أخرجه البخاري ومسلم وغيرهم.

(٩) منها ما رواه مسلم والنسائي والبزار والبيهقي وأبو يعلى فمن يشاء فليرجع إليها في مصادرها المذكورة آنفاً.

(١٠) رواه الترمذي والبيهقي وأحمد كل واحد بطريق مختلف عن الآخر.

(١١) أخرجه البخاري في دلائل النبوة. وهذا الخبر قد روي من طرق متعددة عن جابر بألفاظ كثيرة.

(١٢) حديث جابر رواه مسلم في الصحيح.

(١٣) حديث أبي قتادة في تكثير الماء رواه مسلم في الصحيح.

وكذلك من باب القدرة: عصا موسى عليه السلام[1]، وفلق البحر[2]، والقمل والضفادع، والدم[3]، وناقة صالح[4]، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى لعيسى[5].

كما أن من باب العلم إخبارهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم[6]. وبالجملة لم يكن المقصود هنا ذكر المعجزات النبوية بخصوصها، وإنما الغرض التمثيل بها.

* * *

معجزات غير الأنبياء:

وأما المعجزات التي لغير الأنبياء من باب الكشف والعلم فمثل قول عمر في قصة سارية[7]، وإخبار أبي بكر بأن ببطن زوجته أنثى[8]، وإخبار عمر بمن يخرج من ولده فيكون عادلاً[9]، وقصة صاحب موسى في علمه بحال الغلام[10].

و[التي من باب][11] القدرة مثل قصة الذي عنده علم من الكتاب[12]، وقصة أهل الكهف[13]، وقصة مريم[14]، وقصة خالد بن الوليد[15]، وسفينة مولى رسول الله

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٠٧. (٢) سورة البقرة: آية ٥٠.
(٣) سورة الأعراف: آية ١٣٣.
(٤) سورة هود: آية ٦٤. (٥) (٦) سورة آل عمران: إية ٤٩.
(٧) البداية والنهاية ٧: ١٤٣. وقال: إسناده جيد حسن.
(٨) البداية والنهاية ٦: ٣٤٠ ـ ٣٩٨.
(٩) رواه البيهقي. (١٠) الكهف: ٧٤ و ٨٠.
(١١) ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.
(١٢) النمل: ٤٠. (١٣) الكهف: ٩ ـ ٢٦. (١٤) مريم: ١٦ ـ ٣٧.
(١٥) البداية والنهاية ٦: ٣٩٠.

ﷺ[1]، وأبي مسلم الخولاني[2]، وأشياء يطول شرحها، فإن تعداد هذا مثل المطر، وإنما الغرض التمثيل بالشيء الذي سمعه أكثر الناس.

وأما القدرة التي لم تتعلق بفعله فمثل نصر الله لمن ينصره، وإهلاكه لمن يشتمه.

---

(١) سفينة: مولى رسول الله (ﷺ)، يكنى أبا عبد الرحمن، يقال كان اسمه مهران، أو غير ذلك، فلقب سفينة، لكونه حمل شيئاً كبيراً في السفر. تقريب التهذيب ١: ٣١٢.

(٢) أبو مسلم الخَوْلاني: الزاهد، الشامي، كان رضي الله عنه على جانب عظيم كبير من العبادة حتى لو قيل له إن جهنم لتسعر لما استطاع أن يزيد في عمله شيئاً، وكان يترك الأكل ويقول إنما تجري الخيل وهي ضمر. تقريب التهذيب ٢: ٤٧٣ والطبقات الكبرى للشعراني ١: ٢٥.

فصل

[في أحكام الخوارق]

الخارق ـ كشفاً كان أو تأثيراً ـ إن حصل به فائدة مطلوبة في الدين كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب وإما مستحب.

وإن حصل به أمر مباح كان من نعم الله الدنيوية التي تقتضي شكراً.
وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهي عنه نهي تحريم أو نهي تنزيه كان سبباً للعذاب أو البغض، كقصة الذي أوتى الآيات فانسلخ منها، «بلعام بن باعوراء»[1].

لكن قد يكون صاحبها معذوراً، لاجتهاد، أو تقليد، أو نقص عقل أو علم، أو غلبة حال، أو عجز، أو ضرورة، فيكون من جيش «برح العابد».
والنهي قد يعود إلى سبب الخارق، وقد يعود إلى مقصوده.
فالأول مثل أن يدعو الله دعاء منهياً عنه اعتداء عليه، وقد قال الله تعالى: (ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين)[2].
ومثل الأعمال المنهي عنها إذا أورثت كشفا أو تأثيراً.

والثاني: أن يدعو على غيره بما لا يستحقه، أو يدعو للظالم بالإعانة، ويعينه

---

(١) الذي أوتي الآيات فانسلخ منها هو أحد علماء بني إسرائيل أو هو أمية بن أبي الصلت فإنه قد قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى مرسل رسولاً في ذلك الزمان ورجا أن يكون هو فلما بعث محمداً عليه السلام حسده وكفر به. أو هو بلعم بن باعوراء من الكنعانيين أوتي علم بعض كتب الله (فانسلخ منها) من الآيات بأن كفر بها وأعرض عنها.

(٢) سورة الأعراف: آية ٥٥.

بهمته، كخفراء العدو، وأعوان الظلمة من ذوي الأحوال. فإن صاحبه من عقلاء المجانين، والمغلوبين غلبة بحيث يعذرون، والناقصين نقصاً لا يلامون عليه، كانوا برحية[1]، وقد بينت في غير هذا الموضع ما يعذرون فيه وما لا يعذرون فيه. وإن كانوا عالمين قادرين كانوا بلعامية[2]، فإن من أتى بخارق على وجه منهى عنه، أو المقصود منهى عنه، فإما أن يكون معذوراً معفواً عنه كبرح، أو يكون متعمداً للكذب كبلعام.

فتخلص أن الخارق ثلاثة أقسام: محمود في الدين، ومذموم في الدين، ومباح، لا محمود ولا مذموم في الدين.

فإن كان المباح فيه منفعة كان نعمة، وإن لم يكن فيه منفعة كان كسائر المباحات التي لا منفعة فيها، كاللعب والعبث.

* * *

الإستقامة خير من الكرامة:

قال أبو علي الجوزجاني[3]: «كن طالباً للاستقامة، لا طالباً للكرامة، فإن نفسك منجبلة على طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة».

وقال الشيخ السهروردي[4] في عوارفه: «وهذا الذي ذكره أصل عظيم كبير في الباب، وسر غفل عن حقيقة كثير من أهل السلوك والطلاب، وذلك أن المجتهدين والمتعبدين سمعوا عن سلف الصالحين المتقدمين، وما منحوا به من الكرامات،

---

(١) نسبة إلى برح العابد. (٢) نسبة إلى بلعام بن باعوراء.

(٣) أبو علي الجوزجاني: من كبار مشايخ خراسان. له التصانيف المشهورة، تكلم في علوم الآفات والرياضات والمجاهدات والمعارف والحكم. طبقات الصوفية ٥٨.

(٤) شهاب الدين السُّهْرَوَرْدِيُّ: أحد السادات، الجامع بين الحقيقة والشريعة، والورع والرياضة. له تواليف حسنة، منها «عوارف المعارف» الذي ذكره الشيخ ابن تيمية أعلاه. مات ٦٣٢ هـ. طبقات الأولياء ٢٦٢، ودائرة معارف البستاني ١٠ / ١٥٤ ومعجم المؤلفين ٧/٣١٣.

وخوارق العادات، فأبداً نفوسهم لا تزال تتطلع إلى شيء من ذلك، ويحبون أن يرزقوا شيئاً من ذلك.

ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهماً لنفسه في صحة عمله، حيث لم يكاشف بشيء من ذلك.

ولو علموا سر ذلك لهان عليهم الأمر. فبعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك باباً، والحكمة فيه: أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة تفنناً، فيقوي عزمه على هذا الزهد في الدنيا، والخروج من دواعي الهوى.

وقد يكون بعض عباده يكاشف بصدق اليقين، ويرفع عن قلبه الحجاب. ومن كوشف بصدق اليقين أغنى بذلك عن رؤية خرق العادات، لأن المراد منها كان حصول اليقين، وقد حصل اليقين.

فلو كوشف هذا المرزوق صدق اليقين بشيء من ذلك لازداد يقيناً، فلا تقتضي الحكمة كشف القدرة بخوارق العادات لهذا الموضع استغناء به، وتقتضي الحكمة كشف ذلك لآخر، لموضع حاجته، وكان هذا الثاني يكون أتم استعداداً وأهلية من الأول.

فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهي كل الكرامة، ثم إذا وقع في طريقه شيء خارق كان كأن لم يقع، فما يبالي، ولا ينقص بذلك، وإنما ينقص بالإخلال بواجب حق الاستقامة.

وتعلم هذا، لأنه أصل كبير للطالبين والعلماء والزاهدين ومشايخ الصوفية.

فصل

[في الخوارق الكونية والدينية]

كلمات الله والإنسان:

كلمات الله تعالى نوعان: كلمات كونية، وكلمات دينية.

فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1].

وقال سبحانه: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول كن فيكون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً﴾[3].

والكون كله داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية.

والنوع الثاني: الكلمات الدينية، وهي القرآن، وشرع الله الذي بعث به رسوله، وهي: أمره ونهيه، وخبره. وحظ العبد منها: العلم بها والعمل، والأمر بما

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء باب: ١٠. ومسلم في صحيحه في كتاب الذكر حديث: ٥٤، ٥٥. وأبو داود في سننه في كتاب الطب باب: ١٩، وفي كتاب السنة باب: ٣٩، وفي كتاب الأدب: ٩٨. والترمذي في سننه في كتاب الطب باب: ١٨، وفي كتاب الدعوات باب: ٤٠. وابن ماجة في سننه في كتاب الطب باب: ٣٥، ٣٦، ٤٦. والدارمي في مسنده في كتاب الاستئذان باب: ٤٨. ومالك في الموطأ في كتاب الشعر حديث: ٩ ـ ١١، وفي كتاب الاستئذان حديث: ٣٤. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٣/١٨١، ٢٩٠، ٣٧٥؛ ٣/٤٤٨؛ ٤/٥٧؛ ٥/٤٣٠؛ ٦/٦، ٣٧٧، ٣٧٨، ٤٠٩.

(٢) سورة يس: آية ٨٢. (٣) سورة الأنعام: آية ١٨٥.

أمر الله به.

كما أن حظ العبد عموماً وخصوصاً من الأول: العلم بالكونيات والتأثير فيها، أي: بموجبها.

فالأولى قدرية كونية، والثانية شرعية دينية. وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية التأثير في الشرعيات.

وكما أن الأولى تنقسم إلى تأثير في نفسه، كمشيه على الماء، وطيرانه في الهواء، وجلوسه على النار، وإلى تأثير في غيره بإسقام وإصحاح، وإهلاك وإغناء، وإفقار، فكذلك الثانية تنقسم إلى تأثير في نفسه بطاعة لله ورسوله، والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله ظاهراً وباطناً، وإلى تأثير في غيره، بأن يأمر بطاعة الله ورسوله، فيطاع في ذلك طاعة شرعية، بحيث تقبل النفوس ما يأمرها به من طاعة الله ورسوله في الكلمات الدينيات، كما قبلت من الأول ما أراد تكوينه فيها بالكلمات الكونيات.

* * *

عدم الخوارق لا يضر المسلم:

وإذا تقرر ذلك فاعلم أن عدم الخوارق علماً وقدرة لا يضر المسلم في دينه، فمن لم ينكشف له شيء من المغيبات، ولم يسخر له شيء من الكونيات، لا ينقصه ذلك في مرتبته عند الله.

بل قد يكون عدم ذلك أنفع له في دينه، إذا لم يكن وجود ذلك في حقه مأموراً به أمر إيجاب أو استحباب.

وأما عدم الدين والعمل به فيصير الإنسان به ناقصاً مذموماً، إما أن يجعله مستحقاً للعقاب، وإما أن يجعله محروماً من الثواب.

وذلك لأن العلم بالدين وتعليمه والأمر به ينال به العبد رضوان الله وحده وثوابه

وصلاته، وأما العلم بالكون والتأثير فيه فلا ينال به ذلك إلا إذا كان داخلاً في الدين، بل قد يجب عليه شكره، وقد يناله به إثم.

* * *

أقسام الخوارق:

إذا عرف هذا فالأقسام ثلاثة، إما أن يتعلق بالعلم والقدرة، [أو] بالدين فقط، أو بالكون فقط.

فالأول كما قال لنبيه ﷺ:

﴿وقل رب ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا﴾(1).

فإن السلطان النصير يجمع الحجة والمنزلة عند الله، وهو كلماته الدينية والقدرية الكونية عند الله بكلماته الكونيات.

ومعجزات الأنبياء عليهم السلام تجمع الأمرين، فإنها حجة على النبوة من الله، وهي قدرة، وأبلغ ذلك القرآن الذي جاء به محمد ﷺ، فإنه هو شرع الله، وكلماته الدينيات، وهو حجة محمد ﷺ على نبوته، ومجيئه من الخوارق للعادات. فهو الدعوة، وهو الحجة، والمعجزة.

وأما القسم الثاني فمثل من يعلم بما جاء به الرسول خبراً وأمراً، ويعمل بما جاء به، ويأمر به الناس، ويعلم وقت نزول المطر، وتغيير السعر، وشفاء المريض، وقدوم الغائب، ولقاء العدو.

وله تأثير إما في الأناسي، وإما في غيرهم، بإصحاح وإسقام، أو ولادة، أو هلاك، أو ولاية أو عزل.

وجماع التأثير إما جلب منفعة كالمال والرياسة، وإما دفع مضرة كالعدو

(1) سورة الإسراء: آية ٨٠.

والمرض، أو لا واحد منهما مثل ركوب أسد بلا فائدة، أو إطفاء نار، ونحو ذلك.

وأما الثالث فمن يجتمع له الأمران، بأن يؤتي من الكشف والتأثير الكوني ما يؤيد به الكشف والتأثير الشرعي، وهو علم الدين والعمل به، والأمر به. ويؤتي من علم الدين والعمل به ما يستعمل به الكشف والتأثير الكوني، بحيث تقع الخوارق الكونية تابعة للأوامر الدينية، أو أن تخرق له العادة في الأمور الدينية، بحيث ينال من العلوم الدينية ومن العمل بها، ومن الأمر بها، ومن طاعة الخلق فيها ما لم ينله غيره في مطرد العادة.

فهذه أعظم الكرامات والمعجزات، وهو حال نبينا محمد ﷺ، وأبي بكر الصديق، وعمر، وكل المسلمين.

فهذا القسم الثالث هو مقتضى ﴿إياك نعبد وإياك نستعين﴾[1]. إذ الأول هو العبادة، والثاني هو الإستعانة. وهو حال نبينا محمد ﷺ، والخواص من أمته، المتمسكين بشرعته ومنهاجه، باطناً وظاهراً، فإن كراماتهم كمعجزاته، لم يخرجها إلا لحجة أو حاجة.

فالحجة ليظهر بها دين الله، ليؤمن الكافر، ويخلص المنافق، ويزداد الذين آمنوا إيماناً، فكانت فائدتها اتباع دين الله علماً وعملاً كالمقصود بالجهاد.

والحاجة كجلب منفعة يحتاجون إليها، كالطعام والشراب وقت الحاجة إليه، أو دفع مضرة عنهم، ككسر العدو بالحصى الذي رماهم به فقيل له: ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾[2].

وكل من هذين يعود إلى منفعة الدين، كالأكل والشرب، وقتال العدو، والصدقة على المسلمين، فإن هذا من جملة الدين، والأعمال الصالحة.

* * *

---

(١) سورة الفاتحة: آية ٥.

(٢) سورة الأنفال: آية ١٧.

النقص والكمال في الخوارق:

وأما القسم الأول، وهو المتعلق بالدين فقط، فقد يكون منه ما لا يحتاج إلى الثاني، ولا له فيه منفعة، كحال كثير من الصحابة والتابعين، وصالحي المسلمين وعلمائهم وعبادهم، مع أنه لا بد أن يكون لهم شخصاً أو نوعاً بشيء من الخوارق، وقد يكون منهم من لا يستعمل أسباب الكونيات، ولا عمل بها.

فانتفاء الخارق الكوني في حقه إما لانتفاء سببه، وإما لانتفاء فائدته، وانتفاؤه لانتفاء فائدته لا يكون نقصاً، وأما انتفاؤه لانتفاء سببه فقد يكون نقصاً، وقد لا يكون نقصاً.

فإن كان لإخلاله بفعل واجب، أو ترك محرم، كان عدم الخارق نقصاً، وهو سبب الضرر. وإن كان لإخلاله بالمستحبات فهو نقص عن رتبة المقربين السابقين، وليس هو نقصاً عن رتبة أصحاب اليمين المقتصدين.

وإن لم يكن كذلك، بل لعدم اشتغاله لسبب بالكونيات التي لا يكون عدمها ناقصاً لثواب، لم يكن ذلك نقصاً، مثل من يمرض ولده، ويذهب ماله، فلا يدعو ليعافى ولده، أو ليجيء ماله، أو يظلمه ظالم فلا يتوج عليه لينتصر عليه.

وأما القسم الثاني، وهو صاحب الكشف والتأثير الكوني، فقد تقدم أنه تارة يكون زيادة في دينه، وتارة يكون نقصاً، وتارة لا له ولا عليه، وهذا غالب حال أهل الاستعانة، كما أن الأول غالب حال أهل العبادة.

وهذا الثاني بمنزلة الملك والسلطان الذي قد يكون صاحبه خليفة نبياً، فيكون خير أهل الأرض، وقد يكون ظالماً من شر الناس، وقد يكون ملكاً عادلاً، فيكون من أوساط الناس. فإن العلم بالكونيات، والقدرة على التأثير فيها بالحال والقلب، كالعلم بأحوالها، والتأثير فيها بالملك وأسبابه.

فسلطان الحال والقلب كسلطان الملك واليد، إلا أن أسباب هذا باطنة روحانية، وأسباب هذا ظاهرة جثمانية.

* * *

فضل القسم الأول:

وبهذا يتبين لك: أن القسم الأول إذا صح فهو أفضل من هذا القسم، وخير عند الله، وعند رسوله، وعباده الصالحين المؤمنين العقلاء، وذلك من وجوه:

أحدها: أن علم الدين طلباً وخبر ألا ينال إلا من جهة الرسول ﷺ، وأما العلم بالكونيات فأسبابه متعددة، وما اختص به الرسل وورثتهم أفضل مما شركهم فيه بقية الناس. فلا ينال علمه إلا هم وأتباعهم، ولا يعلمه إلا هم وأتباعهم.

الثاني: إن الدين لا يعمل به إلا المؤمنون الصالحون، الذين هم أهل الجنة، وأحباب الله وصفوته، وأحباؤه وأولياؤه، ولا يأمر به إلا هم.

وأما التأثير الكوني فقد يقع من كافر، ومنافق، وفاجر تأثيره في نفسه وفي غيره، كالأحوال الفاسدة، والعين، والسحر، وكالملوك والجبابرة المسلطين، والسلاطين الجبابرة، وما كان من العلم مختصاً بالصالحين أفضل مما يشترك فيه المصلحون والمفسدون.

الثالث: أن العلم بالدين والعمل به ينفع صاحبه في الآخرة ولا يضره، وأما الكشف والتأثير فقد لا ينفع في الآخرة، بل قد يضره، كما قال تعالى:

﴿ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون﴾(1).

---

(1) سورة البقرة: آية ١٠٣. وإذا كان الكشف والتأثير قد لا ينفع في الآخرة، بل قد يضر، فكذلك علم الدين قد لا ينفع في الآخرة، بل قد يضر. والدليل حديث الرسول (ﷺ) في الرجل الذي يأتي يوم القيامة وقد جمع القرآن: «فيقول الله تعالى للقارىء: ألم أعلّمك ما أنزلت على رسولي؟ فيقول: بلى يا رب. قال: فما عملت فيما علمت؟ فيقول: كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله تعالى له: كذبت. وتقول له الملائكة: كذبت. ويقول له الله تعالى: بل أردت أن يقال فلان قارىء، وقد قيل ذلك». ثم قال رسول الله (ﷺ) في هذا الرجل وفي الإثنين اللذين قُتِلَ أحدهما يقال فلان جريء، وثانيهما الذي انفق ماله ليقال فلان جواد، قال (ﷺ) فيهم: «أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة». أخرجه مسلم والترمذي والنسائي.

كما انه من المعلوم ان العلم بالكونيات إذا استخدم استخداماً طيباً يعود على عباد الله =

الرابع: أن الكشف والتأثير إما أن يكون فيه فائدة، أو لا يكون. فإن لم يكن فيه فائدة، كالإطلاع على سيئات العباد، وركوب السباع لغير حاجة، والاجتماع بالجن لغير فائدة، والمشي على الماء مع إمكان العبور على الجسر، فهذا لا منفعة فيه، لا في الدنيا، ولا في الآخرة، وهو بمنزلة اللعب والعبث.

وإنما يستعظم هذا من لم ينله، وهو تحت القدرة والسلطان في الكون، مثل من يستعظم الملك، أو طاعة الملوك لشخص، وقيام الحالة عند الناس بلا فائدة، فهو يستعظمه من جهة سببه، لا من جهة منفعته، كالمال والرياسة، ودفع مضرة كالعدو والمرض.

فهذه المنفعة تنال غالباً بغير الخوارق أكثر مما تنال بالخوارق، ولا يحصل بالخوارق منها إلا القليل، ولا تدوم إلا بأسباب أخرى.

وأما الآخر أيضاً فلا يحصل بالخوارق إلا مع الدين، والدين وحده موجب للآخرة بلا خارق، بل الخوارق الدينية الكونية أبلغ من تحصيل الآخرة، كحال نبينا محمد ﷺ. وكذلك المال والرئاسة التي تحصل لأهل الدين بالخوارق، إنما هو مع الدين، وإلا فالخوارق وحدها لا تؤثر في الدنيا إلا أثراً ضعيفاً.

فإن قيل: مجرد الخوارق إن لم تحصل بنفسها منفعة لا في الدين ولا في الدنيا فهي علامة طاعة النفوس له، فهو موجب الرياسة والسلطان، ثم يتوسط ذلك، فتجتلب المنافع الدينية والدنيوية، وتدفع المضار الدينية والدنيوية.

= بالنفع في أمور حياتهم وفي تقريبهم من مولاهم سبحانه وتعالى. لا شك انه ينفع صاحبه في الآخرة نفعاً عظيماً، لأن العلم بالكونيات قد دعا الله تعالى عباده إلى تعلمه، كما في قوله تعالى: ﴿أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت. وإلى السماء كيف رفعت. وإلى الجبال كيف نصبت. وإلى الأرض كيف سطحت﴾. الغاشية: ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠. وقال تعالى: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾. العنكبوت: ٢٠. وقال تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف اليل والنهار لأيات لأولي الألباب﴾. آل عمران: ١٩٠. فإذا كان علم الدين ينفع في الآخرة إذا استخدم فيما يرضي الله ولوجه الله، فالأمر كذلك لعلم الكونيات إذا استخدم فيما يرضي الله ولوجه الله.

قلت: نحن لم نتكلم إلا في منفعة الدين، أو الخارق في نفسه، من غير فعل الناس.

وأما إن تكلمنا فيما يحصل بسببها من فعل الناس فنقول:

أولاً:

الدين الصحيح أوجب لطاعة النفوس، وحصول الرياسة، من الخارق المجرد، كما هو الواقع، فإن لا نسبة لطاعة من أطيع لدينه، إلى طاعة من أطيع لتأثيره. إذ طاعة الأول أعم وأكثر. والمطيع بها خيار بني آدم عقلاً وديناً.

وأما الثانية فلا تدوم ولا تكثر، ولا يدخل فيها إلا جهال الناس، كأصحاب مسيلمة الكذاب[1]، وطليحة الأسدي[2] ونحوهم، وأهل البوادي والجهال ممن لا عقل له ولا دين. ثم نقول:

ثانياً: لو كان صاحب الخارق يناله من الرياسة والمال أكثر من صاحب الدين، لكان غايته أن يكون ملكاً من الملوك، بل ملكه إن لم يقرنه بالدين فهو كفرعون، وكمقدمي الإسماعيلية[3] ونحوهم.

وقد قدمنا: أن رياسة الدنيا التي ينالها الملوك بسياستهم وشجاعتهم وإعطائهم

---

(١) مُسَيْلِمَة الكذَّاب: ادعى النبوة كذباً، حتى استطاع خالد بن الوليد، رضي الله عنه قتله سنة ١٢ هـ، والقضاء على فتنته نهائياً. سيرة ابن هشام ٣: ٧٤ والروض الأنف ٢: ٣٤٠ والكامل لابن الأثير ٢: ١٣٧ - ١٤٠ وفتوح البلدان للبلاذري ٩٤ - ١٠٠.

(٢) طُلَيْحة الأسدي: متنبىء، شجاع، من الفصحاء، يُعَد بألف فارس - كما يقول النووي - ادعى النبوة إلى ان سار إليه ابن الوليد وقاتله، ففر إلى الشام. ثم أسلم بعد أن أسلمت أسد وغطفان كافة. ووفد على عمر، فبايعه في المدينة. وخرج إلى العراق، فحسن بلاؤه في الفتوح. واستشهد بنهاوند. ابن الأثير: حوادث سنة ١١ وتهذيب ابن عساكر ٧: ٩٠ وتاريخ الخميس ٢: ١٦٠.

(٣) الإسماعيلية: فرقة من فرق الشيعة، بدأت كسائر فرق الشيعة بداية عقائدية، ثم بعد ذلك تأثرت بالفلسفات الأجنبية تأثراً كبيراً جعلها تمزج بينها وبين العقائد مزجاً غريباً. الملل والنحل للشهرستاني، جـ ١، ص ١٦٧ - ١٦٨. وانظر أيضاً: ابن تيمية حياته وعصره، للإمام أبو زهرة ص ١٧٠.

أعظم من الخارق المجرد، فإن هذه أكثر ما تكون مدة قريبة.

الخامس: أن الدين ينفع صاحبه في الدنيا والآخرة، ويدفع عنه مضرة الدنيا والآخرة، من غير أن يحتاج معه إلى كشف أو تأثير.

وأما الكشف والتأثير فإن لم يقترن به الدين هلك[1] صاحبه في الدنيا والآخرة.

أما الآخرة فلعدم الدين الذي هو أداء الواجبات، وترك المحرمات.

وأما في الدنيا فإن الخوارق هي من الأمور الخطرة، التي لا تنالها النفوس إلا بمخاطرات، في القلب والجسم والأهل والمال، فإنه من سلك طريق الجوع والرياضة المفرطة خاطر بقلبه ومزاجه ودينه، وربما زال عقله، ومرض جسمه، وذهب دينه.

وإن سلك طريق الوله والاختلاط بترك الشهوات، ليتصل بالأرواح الجنية، وتغيب النفوس عن أجسامها، كما يفعل مولهو الأحمدية، فقد أزال عقله، وأذهب ماله ومعيشته، وأشقى نفسه شقاء لا مزيد عليه، وعرض نفسه لعذاب الله في الآخرة، لما تركه من الواجبات، وما فعله من المحرمات.

وكذلك إن قصد تسخير الجن بالأسماء والكلمات، من الأقسام والعزائم، فقد عرض نفسه لعقوبتهم ومحاربتهم.

بل لو لم يكن الخارق إلا دلالة صاحب المال المسروق والضال على ماله، أو شفاء المريض، أو دفع العدو من السلطان والمحاربين، فهذا القدر إذا فعله الإنسان مع الناس، ولم يكن عمله دينا يتقرب به إلى الله، كان كأنه قهرمان للناس، يحفظ أموالهم، أو طبيب أو صيدلي يعالج أمراضهم، أو أعوان سلطان يقاتلون عنه، إذ عمله من جنس عمل أولئك سواء.

ومعلوم أن من سلك هذا المسلك على غير الوجه الديني فإنه يحابي بذلك

---

(١) في الأصل: وإلا هلك، وما أوردناه أوضح.

أقواماً، ولا يعدل بينهم، وربما أعان الظلمة بذلك، كفعل بلعام، وطوائف من هذه الأمة، وغيرهم.

وهذا يوجب له عداوة الناس، التي هي من أكثر أسباب مضرة الدنيا، ولا يجوز أن يحتمل المرء ذلك إلا إذا أمر الله به ورسوله؛ لأن ما أمر الله به ورسوله وإن كان فيه مضرة، فمنفعته غالبة على مضرته، والعاقبة للتقوى.

السادس: أن الدين علماً وعملا إذا صح فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحبه. قال الله تعالى:

﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾[1].

وقال تعالى:

﴿إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً. وإذا لآتيناهم من لدنا أجراً عظيماً. ولهديناهم صراطاً مستقيماً﴾[3].

وقال تعالى:

﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾[4].

وقال رسول الله ﷺ: «اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله». ثم قرأ: (إن في ذلك لآيات للمتوسمين). رواه الترمذي وحسنه من رواية أبي سعيد[5].

---

(١) سورة الطلاق: آية ٢ ـ٣.
(٢) سورة الأنفال: آية ٢٩.
(٣) سورة النساء: آية ٦٦، ٦٧، ٦٨.
(٤) سورة يونس: آية ٦٢، ٦٣، ٦٤.
(٥) أخرجه البخاري في التاريخ. والترمذي عن أبي سعيد والحكيم وسمويه، وقال الترمذي انه غريب. والطبراني في الكبير. وابن عدي في الكامل عن أبي أمامة بن جرير عن ابن عمر. وابن جرير في تفسيره من حديث ابن عمر، وثوبان بزيادة: «... وينطق بتوفيق الله». وأخرجه العسكري في الأمثال من حديث عمرو بن قيس الملائي عن عطية العوفي، عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً. وأيضاً عند العسكري من حديث ابن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن عمير بن هانىء، عن أبي الدرداء من قوله: «اتقوا فراسة =

وقال الله تعالى فيما روى عنه رسول ﷺ: «من عادى لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة، وما تقرب إلى عبدي بمثل أداء ما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت في شيء أنا فاعله ترددي في قبض نفس عبدي المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بد له منه»[1].

فهذا فيه محاربة الله لمن حارب وليه، وفيه أن محبوبه به يعلم مسمعاً وبصراً، وبه يعمل بطشاً وسعياً، وفيه أنه يجيبه إلى ما يطلبه منه من المنافع، ويصرف عنه ما يستعيذ به من المضار. وهذا باب واسع.

وأما الخوارق فقد تكون مع الدين، وقد تكون مع عدمه، أو فساده، أو نقصه.

السابع: إن الدين هو إقامة حق العبودية، وهو فعل ما عليك، وما أمرت به، أما الخوارق فهي من حق الربوبية، إذ لم يؤمر بها العبد، وإن كانت بسعي من العبد، فإن الله هو الذي يخلقها بما ينصبه من الأسباب. والعبد ينبغي له أن يهتم بما عليه، وما به أمر.

= العلماء، فإنهم ينظرون بنور الله».

وأخرجه الهروي. وأبو نعيم في الطب النبوي بسند حسن، عن أنس رضي الله عنه رفعه: «إن الله عباداً يعرفون الناس بالتواسم». وفي رواية أخرى عن وهب بن منبه عن طاووس، عن ثوبان رفعه بلفظ «احذروا دعوة المسلم وفراسته، فإنه ينظر بنور الله، وينطق بتوفيق الله».

وذكره الزركشي في التذكرة، والسخاوي في المقاصد الحسنة.

قال السيوطي: حديث ضعيف، فيه عند الترمذي وغيره عطية العوفي وهو ضعيف مدلس.

وآية الحديث: سورة الحجر: آية ٧٥.

(١) حديث صحيح، أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الرقاق باب: ٣٨. والإمام أحمد ابن حنبل في مسنده ٦/٢٥٦.

وأما اهتمامه بما يفعله الله إذاٍ لم يؤمر بالاهتمام به، فهو إما فضول، فتكون لما فيها من المنافع، كالمنافع السلطانية المالية التي يستعان بها على الدين، كتكثير الطعام والشراب، وطاعة الناس إذا رأوها. ولما فيها من دفع المضار عن الدين، بمنزلة الجهاد الذي فيه دفع العدو وغلبته.

ثم هل الدين محتاج إليها في الأصل، لأن الإيمان لا يتم إلا بالخوارق؟ أوليس بمحتاج في الخاصة، بل في حق العامة؟ هذا نتكلم عليه.

* * *

نفع الخوارق للدين:

وأنفع الخوارق الخارق الديني، وهو حال نبينا محمد ﷺ، قال ﷺ: «ما من نبي إلا وقد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أتيته وحياً أوحاه الله إلي، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة». أخرجاه في الصحيحين[1].

وإنما كانت آيته هي دعوته وحجته، بخلاف غيره من الأنبياء.

ولذلك نجد كثيراً من المنحرفين منا إلى العيسوية[2] يفرون من القرآن والقال إلى الحال، كما أن المنحرفين منا إلى الموسوية[3] يفرون من الإيمان أو الحال إلى القال.

ونبينا محمد ﷺ صاحب القال والحال، وصاحب القرآن والإيمان.

ثم بعده الخارق المؤيد للدين، المعين له، لأنه الخارق في مرتبة ﴿إياك

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الإعتصام باب: ١. ومسلم في صحيحه في كتاب الإيمان حديث ٢٣٩. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٢/٣٤١، ٤٥١.

(٢) نسبة إلى عيسى بن مريم عليه السلام.

(٣) نسبة إلى موسى عليه السلام.

نستعين﴾[1]. والدين في مرتبة ﴿إياك نعبد﴾[2].

فأما الخارق الذي لم يعن الدين، فإما متاع دنيا، أو مبعد صاحبه عن الله تعالى.

فظهر بذلك أن الخوارق النافعة تابعة للدين، حادثة له، كما أن الرياسة النافعة هي التابعة للدين، وكذلك المال النافع، كما كان السلطان والمال بيد النبي ﷺ، وأبي بكر، وعمر، رضي الله عنهما.

فمن جعلها هي المقصودة، وجعل الدين تابعاً لها، ووسيلة إليها لا لأجل الدين في الأصل، فهو تشبه بمن يأكل الدنيا بالدين، وليست حاله كحال من تدين خوفاً من العذاب، أو رجاء الجنة، فإن ذلك مأمور به، وهو على سبيل نجاة، وشريعة صحيحة.

والعجب أن كثيراً ممـن يزعم أن همه قد ارتفع وارتقى عن أن يكون دينه خوفاً من النار، أو طلباً للجنة، يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا، ولعله يجتهد اجتهاداً عظيماً في مثله، هذا عرف.

ولكن منهم من يكون قصده بهذا تثبيت قلبه، وطمأنينته، وإيقانه بصحة طريقه وسلوكه، فهو يطلب الآية برهاناً وعلامة على صحة دينه، كما تطلب الأمم من الأنبياء الآيات دلالة على صدقهم، فهذا أعذر لهم في ذلك.

ولهذا لما كان الصحابة رضي الله عنهم مستغنين في علمهم بدينهم وعملهم به عن الآيات بما رأوه من حال رسول الله ﷺ، ونالوه من علم صار كل من كان عنهم أبعد، مع صحة طريقته يحتاج إلى ما عندهم في علم دينه وعمله.

فيظهر مع الأفراد في أوقات الفترات، وأماكن الفترات من الخوارق ما لا يظهر لهم ولا لغيرهم من حال ظهور النبوة والدعوة.

---

(١) (٢) سورة الفاتحة: آية ٥.

طرق العلم بالكائنات والدين

العلم بالكائنات وكشفها له طرق متعددة، حسية، وعقلية، وكشفية، وسمعية، ضرورية، ونظرية، وغير ذلك.

وينقسم إلى قطعي، وظني.. وسنتكلم إن شاء الله على ما يتبع منها، وما لا يتبع في الأحكام الشرعية، أعني الأحكام الشرعية على العلم بالكائنات من طريق الكشف يقظة ومناماً.

* * *

أقسام العلم بالدين:

أما العلم بالدين وكشفه فالدين نوعان: أمور خبرية اعتقادية، وأمور طلبية عملية.

فالأول: كالعلم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر. ويدخل في ذلك أخبار الأنبياء وأممهم، ومراتبهم في الفضائل، وأحوال الملائكة، وصفاتهم وأعمالهم، ويدخل في ذلك صفة الجنة والنار، وما في الأعمال من الثواب والعقاب، وأحوال الصحابة والأولياء وفضائلهم ومراتبهم وغير ذلك.

وقد يسمى هذا النوع «أصول دين» ويسمى «الفقه الأكبر»[1]، ويسمى الجدال فيه بالعقل «كلاماً»، ويسمى «عقائد واعتقادات» ويسمى «المسائل العلمية، والمسائل الخبرية»، ويسمى «علم المكاشفة».

---

(١) في الأصل: العقد الأكبر، وما أوردناه هو الصحيح.

والثاني: الأمور العملية الطلبية، من أعمال الجوارح والقلب، كالواجبات، والمحرمات، والمستحبات، والمكروهات، والمباحات، فإن الأمر والنهي قد يكون بالعلم والاعتقاد.

فهو من جهة كونه علماً واعتقاداً، أو خبراً صادقاً أو كاذباً، يدخل في القسم الأول، ومن جهة كونه مأموراً به أو منهياً عنه يدخل في القسم الثاني، مثل شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فهذه الشهادة من جهة كونها صادقة مطابقة لخبرها فهي من القسم الأول، ومن جهة أنها فرض واجب، وأن صاحبها بها يصير مؤمناً يستحق الثواب، وبعد مسها يصير كافراً يحل دمه وماله فهي من القسم الثاني.

* * *

الاتفاق والاختلاف على طرق العلم بالدين:

وقد يتفق المسلمون على بعض الطرق الموصلة إلى القسمين، كاتفاقهم على أن القرآن دليل فيهما في الجملة.

وقد يتنازعون في بعض الطرق، كتنازعهم في الأحكام العملية من الحسن والقبح، والوجوب والحظر، هل تعلم بالفعل كما تعلم بالسمع، أم لا تعلم إلا بالسمع؟

وأن السمع هل هو منشأ الأحكام أو مظهر لها، كما هو مظهر للحقائق الثابتة بنفسها؟

وكذلك الاستدلال بالكتاب والسنة والإجماع على المسائل الكبار في القسم الأول، مثل مسائل الصفات، والقدر، وغيرهما، مما اتفق عليه أهل السنة والجماعة من جميع الطوائف.

وأبى ذلك كثير من أهل البدع المتكلمين بما عندهم على أن السمع لا يثبت إلا بعد تلك المسائل، فإثباتها بالسمع متوقف على إثبات السمع بها، حتى يزعم كثير

س القدرية والمعتزلة أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن على حكمة الله وعدله، وأنه خالق كل شيء، وقادر على كل شيء.

وتزعم الجهمية[1] من هؤلاء ومن اتبعهم من بعض الأشعرية[2] وغيرهم: أنه لا يصح الاستدلال بذلك على علم الله وقدرته وعبادته، وأنه مستو على العرش.

ويزعم قوم من غالية أهل البدع أنه لا يصح الاستدلال بالقرآن والحديث على المسائل القطعية مطلقاً، بناء على أن الدلالة القطعية لا تفيد اليقين بما زعموا.

ويزعم قوم من أهل البدع أنه لا يستدل بالأحاديث المتلقاة بالقبول على مسائل الصفات، والقدر، ونحوهما، مما يطلب فيه القطع باليقين.

ويزعم قوم من غالية المتكلمين أنه لا يستدل بالإجماع على شيء، ومنهم من يقول: لا يصح الاستدلال به على الأمور العلمية، لأنه ظني. وأنواع من هذه المقالات التي ليس هذا موضعها.

فإن طرق العلم والظن وما يتوصل به إليهما من دليل أو مشاهدة بالغة أو ظاهرة، عام أو خاص، قد تنازع فيه بنو آدم تنازعاً كثيراً.

وكذلك كثير من أهل الحديث والسنة، قد ينفي حصول العلم لأحد بغير الطريق الذي يعرفها، حتى ينفي أكثر الدلالات العقلية من غير حجة على ذلك.

وكذلك الأمور الكشفية التي للأولياء، من أهل الكلام من ينكرها، ومن أصحابنا من يغلو فيها. وخيار الأمور أوساطها.

* * *

---

(١) الجهمية: نسبة إلى الجهم بن صفوان الذي قال بالجبرية، وبنفي الصفات، ويلاحظ ان ابن تيمية يطلق لفظ الجهمية على المعتزلة أيضاً لاشتراكهم مع الجهم في القول بنفي الصفات، ولكن المعتزلة يتبرأون من تلك التسمية لأنهم مخالفين للجهم في قوله بالجبرية، حيث انهم يقولون بحرية الإرادة الإنسانية.

(٢) الأشعرية: نسبة إلى أبي الحسن الأشعري، ويعتبر مذهبه امتداداً لمذهب أهل السنة والجماعة، حيث انه دافع عن عقائدهم بمذاهب كلامية.

الغلو في الدلائل العقلية والنقلية والكشفية:

والطريق العقلية والنقلية والكشفية والخبرية والنظرية طريقة أهل الحديث وأهل الكلام وأهل التصوف، قد تجاذبها الناس نفياً وإثباتاً.

فمن الناس من ينكر منها ما لا يعرفه.

ومن الناس من يغلو فيما يعرفه، فيرفعه فوق قدره، وينفي ما سواه.

فالمتكلمة والمتفلسفة تعظم الطرق العقلية، وكثير منها فاسد متناقض، وهم أكثر خلق الله تناقضاً واختلافاً، وكل فريق يرد على الآخر فيما يدعيه قطعياً.

وطائفة ممن تدعي السنة والحديث يحتجون فيها بأحاديث موضوعة، وحكايات مصنوعة يعلم أنها كذب، وقد يحتجون بالضعيف في مقابلة القوي، وكثير من المتصوفة والفقراء يبني على منامات وأذواق وخيالات يعتقدها كشفاً، وهي خيالات غير مطابقة، وأوهام غير صادقة:

﴿إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً﴾[1].

* * *

الاتفاق والاختلاف في أدلة الشرع:

أما طرق الأحكام الشرعية التي تتكلم عليها في أصول الفقه فهي بإجماع المسلمين: الكتاب، لم يختلف أحد من الأئمة في ذلك، كما خالف بعض أهل الضلال في الاستدلال على بعض المسائل الاعتقادية.

والثاني: السنة المتواترة، التي لا تخالف ظاهر القرآن، بل تفسره، مثل أعداد الصلاة، وأعداد ركعاتها، ونصب الزكاة، وفرائضها، وصفة الحج، والعمرة، وغير ذلك من الأحكام التي لم تعلم إلا بتفسير السنة.

---

(١) سورة النجم: آية ٢٨.

وأما السنة المتواترة التي لا تفسر ظاهر القرآن، أو يقال: تخالف ظاهره كالسنة في تقدير نصاب السرقة، ورجم الزاني، وغير ذلك.

فمذهب جميع السلف العمل بها أيضاً، إلا الخوارج، فإن من قولهم أو قول بعضهم مخالفة السنة، حيث قال أولهم للنبي ﷺ في وجهه: «إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله»(١).

ويحكى عنهم أنهم لا يتبعونه ﷺ إلا فيما بلغه عند الله من القرآن والسنة المفسرة. وأما ظاهر القرآن إذا خالفه الرسول فلا يعملون إلا بظاهره. ولهذا كانوا مارقة مرقوا من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية.

وقال النبي ﷺ لأولهم: «خبت وخسرت إن لم أعدل»(٢). فإذا جوز أن الرسول يجوز أن يخون ويظلم فيما إئتمنه الله عليه من الأموال، وهو معتقد أنه أمين الله على وحيه فقد اتبع ظالماً كاذباً. وجوز أن يخون ويظلم فيما ائتمنه الله عليه من المال من هو صادق أمين فيما ائتمنه الله عليه من خبر السماء.

ولهذا قال النبي ﷺ: «أيأمنني من في السماء، ولا تأمنوني»؟(٣) أو كما قال.

يقول ﷺ: «إن أداء الأمانة في الوحي أعظم، والوحي الذي أوجب الله طاعته هو الوحي بحكمه وقسميه.

وقد ينكر هؤلاء كثيراً من السنن طعناً في النقل، لا رداً للمنقول، كما ينكر كثير

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المغازي باب: ٣٧، وفي كتاب الديات باب: ٢٢ بألفاظ مختلفة. كما أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب القسامة حديث: ١٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المناقب باب: ٢٥، وفي كتاب الخمس باب: ١٥. وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الزكاة.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب الأنبياء باب: ٦، وكتاب التوحيد باب: ٢٣. ومسلم في صحيحه في كتاب الزكاة حديث: ١٤٣، ١٤٤. وأبو داود في سننه في كتاب السنة باب: ٢٨. والنسائي في كتاب الزكاة باب: ٧٩، وفي كتاب تحريم الدم باب: ٢٦. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٦٨/٣، ٧٣.

من أهل البدع السنن المتواترة عند أهل العلم، كالشفاعة، والحوض، والصراط، والقدر، وغير ذلك.

الطريق الثالث: السنن المتواترة عن رسول الله ﷺ، إما متلقاة بالقبول من أهل العلم بها، أو برواية الثقات بها.

وهذه أيضاً مما اتفق أهل العلم على اتباعها، من أهل الفقه والحديث والتصوف وأكثر أهل العلم. وقد أنكرها بعض أهل الكلام، وأنكر كثير منهم أن يحصل العلم بشيء منها، وإنما يوجب العلم، فلم يفرقوا بين المتلقي بالقبول وغيره.

وكثير من أهل الرأي قد ينكر كثيراً منها بشروط اشترطها، ومعارضات دفعها بها ووضعها، كما يرد بعضهم بعضاً، لأنه بخلاف ظاهر القرآن فيما يزعم، ولأنه خلاف الأصول، أو قياس الأصول، أو لأن عمل متأخري أهل المدينة بخلافه، أو غير ذلك من المسائل المعروفة في كتب الفقه والحديث، وأصول الفقه.

الطريق الرابع: الإجماع[1] وهو متفق عليه بين عامة المسلمين من الفقهاء والصوفية وأهل الحديث والكلام وغيرهم في الجملة. وأنكره بعض أهل البدع من المعتزلة والشيعة.

لكن المعلوم منه هو ما كان عليه الصحابة. وأما ما بعد ذلك فتعذر العلم به غالباً. ولهذا اختلف أهل العلم فيما يذكر من الإجماعات الحادثة بعد الصحابة، واختلفوا في مسائل منه، كإجماع التابعين على أحد قولي الصحابة، والإجماع الذي لم ينقرض عصر أهله حتى خالفهم بعضهم، والإجماع السكوتي، وغير ذلك.

الطريق الخامس: القياس[2] على النص والإجماع. وهو حجة أيضاً عند

---

(١) الإجماع: هو في اصطلاح الفقهاء وعلماء الأصول اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر من العصور بعد وفاة الرسول (ﷺ) على حكم شرعي.

(٢) القياس: هو في اصطلاح علماء الأصول إلحاق مسألة لا نص على حكمها بمسألة ورد =

جماهير الفقهاء، لكن كثيراً من أهل الرأي أسرف فيه، حتى استعمله قبل البحث عن النص، وحتى رد به النصوص، وحتى استعمل منه الفاسد.

ومن أهل الكلام وأهل الحديث وأهل القياس من ينكره رأساً، وهي مسألة كبيرة، والحق فيها متوسط بين الإسراف والنقص.

الطريق السادس: الاستصحاب، وهو البقاء على الأصل فيما يعلم ثبوته وانتفاؤه بالشرع. وهو حجة على عدم الاعتقاد بالاتفاق. وهل هو حجة في اعتقاد العدم؟ فيه خلاف.

ومما يشبهه الاستدلال بعدم الدليل السمعي على عموم الحكم الشرعي، مثل أن يقال: لو كانت الأضحية أو الوتر واجباً لنصب عليه الشرع دليلاً شرعياً، إذ وجوب هذا لا يعلم بدون الشرع، ولا دليل، فلا وجوب.

فالأول يبقى على نفي الوجوب والتحريم المعلوم بالعقل حتى يثبت المغير له، وهذا استدلال بعدم الدليل السمعي على عدم الحكم، إذ يلزم من ثبوت مثل هذا الحكم ثبوت دليله السمعي.

كما يستدل بعدم النقل لما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، وما توجب الشريعة نقله، وما يعلم من دين أهلها وعاداتهم أنهم ينقلونه، على أنه لم يكن.

كالاستدلال بذلك على عدم زيادة في القرآن، وفي الشرائع الظاهرة، وعدم النص الجلي بالإمامة على علي أو العباس أو غيرهما، ويعلم الخاصة من أهل العلم بالسنن والآثار، وسيرة النبي ﷺ وخلفائه انتفاء أمور من هذا، لا يعلم

= النص بحكمها لتساوي المسألتين في علة الحكم. فإذا وجدت مسألة ورد النص بحكمها وعرفنا علة الحكم ثم وقعت مسألة لم ينص على حكمها ولكن تشترك مع المسألة الأولى في علة الحكم فإن المسألة الثانية تأخذ حكم المسألة الأولى. على سبيل المثال شرب الخمر مسألة ثبت بالنص حكمها، وهو التحريم الذي دل عليه قوله تعالى: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه﴾. وعلة التحريم هي الإسكار، فكل شراب فيه هذه العلة يسوّى بالخمر في حكم التحريم.

انتفاءها غيرهم، ولعلمهم بما ينفيها من أمور منقولة يعلمونها هم، ولعلمهم بانتفاء لوازم نقلها، فإن وجود أحد الضدين ينفي الآخر، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم.

الطريق السابع: المصالح المرسلة. وهو: أن يرى المجتهد أن هذا الفعل يجلب منفعة راجحة، وليس في الشرع ما ينفيه، فهذه الطريق فيها خلاف مشهور، فالفقهاء يسمونها المصالح المرسلة، ومنهم من يسميها الرأي، وبعضهم يقرب إليها الاستحسان.

وقريب منها ذوق الصوفية ووجدهم وإلهاماتهم، فإن حاصلها: أنهم يجدون في القول والعمل مصلحة في قلوبهم، وأديانهم، ويذوقون طعم ثمرته، وهذه مصلحة.

لكن بعض الناس يخص المصالح المرسلة بحفظ النفوس والأموال والأعراض والعقول والأديان، وليس كذلك، بل المصالح المرسلة في جلب المنافع، وفي دفع المضار، وما ذكروه من دفع المضار عن هذه الأمور الخمسة فهو أحد القسمين.

وجلب المنفعة يكون في الدين والدنيا، ففي الدنيا كالمعاملات والأعمال التي يقال: فيها مصلحة للخلق، من غير حظر شرعي، وفي الدين ككثير من المعارف والأحوال والعبادات والزهادات التي يقال: فيها مصلحة للإنسان من غير منع شرعي.

فمن قصر المصالح على العقوبات التي فيها نفع الفساد عن تلك الأحوال ليحفظ الجسم فقط فقد قصر.

تحقيق الكلام في المصالح المرسلة والاستحسان

هذا فصل عظيم ينبغي الاهتمام به، فإن من جهته حصل اضطراب عظيم، وكثير من الأمراء والعلماء والعباد رأوا المصالح فاستعملوها بناء على هذا الأصل.

وقد يكون منها ما هو محظور في الشرع ولم يعلموه، وربما قدم على المصالح المهدية كلاماً بخلاف النصوص، وكثير منهم من أهمل مصالح يجب اعتبارها شرعاً، بناء على أن الشرع لم يرد بها، ففوت واجبات ومستحبات، أو وقع في محظورات ومكروهات، وقد يكون الشرع ورد بذلك ولم يعلمه.

وحجة الأول: أن هذه مصلحة، والشرع لا يهمل المصالح، بل قد دل الكتاب والسنة والإجماع على اعتبارها.

وحجة الثاني: إن هذا أمر لم يرد به الشرع نصاً ولا قياساً.

* * *

اضطراب الناس في المصالح والاستحسان:

والقول بالمصالح المرسلة يشرع من الدين ما لم يأذن به الله. وهي تشبه من بعض الوجوه مسألة الاستحسان والتحسين العقلي، والرأي، ونحو ذلك، فإن الاستحسان: طلب الحسن والأحسن، كالاستخراج، وهو رؤية الشيء حسناً كما أن الاستقباح: رؤية الشيء قبيحاً، والحسن هو المصلحة، فالاستحسان والاستصلاح متقاربان، والتحسين العقلي قول بأن العقل يدرك الحسن، لكن بينهما فروق.

والقول الجامع: أن الشريعة لا تهمل مصلحة قط، بل الله تعالى قد أكمل لنا ديننا، وأتم النعمة، فما من شيء يقرب إلى الجنة إلا وقد حدثنا به النبي ﷺ، وتركنا على البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها بعده إلا هالك.

لكن ما اعتقده العقل مصلحة ـ وإن كان الشرع لم يرد به ـ فأحد الأمرين لازم له.

إما أن الشرع دل عليه من حيث لم يعلم هذا الناظر.

أو أنه ليس بمصلحة، أو اعتقد مصلحة.

لأن المصلحة هي المنفعة الحاصلة، أو الغالبة.. وكثيراً ما يتوهم الناس أن الشيء ينفع في الدين والدنيا، أو يكون فيه منفعة مرجوحة بالمضرة، كما قال تعالى في الخمر والميسر:

﴿قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما﴾[1].

وكثير مما ابتدعه الناس من العقائد والأعمال من بدع أهل الكلام وأهل التصوف وأهل الرأي وأهل الملك حسبوه منفعة أو مصلحة، نافعاً، وحقاً وصواباً، ولم يكون كذلك.

بل كثير من الخارجين عن الإسلام من اليهود والنصارى والمشركين والصابئين[2] والمجوس[3] يحسب كثير منهم أن ما هم عليه من الاعتقادات

---

(١) سورة البقرة: آية ٢١٩.

(٢) الصابئون: هم عبدة الملائكة أو الكواكب.

(٣) المجوس: أثبتوا أن للعالم إلهين اثنين، مُدَبِّرين قديمين، يقتسمان الخير والشر، والنفع والضر، والصلاح والفساد، يسمون أحدهما: إله النور والآخر إله الظلمة. إلا انه ينبغي ان يلاحظ ان المجوس الأصلية زعموا أن الأصلين لا يجوز أن يكونا قديمين أزليين، بل النور أزلي، والظلمة محدثة. والمجوس إنما يعظمون النار لمعان فيها، منها أنها جوهر شريف علوي، ومنها أنها ما أحرقت الخليل إبراهيم عليه السلام، ومنها ظنهم أن التعظيم لها ينجيهم في المعاد من عذاب النار. وبالجملة هي قبلة لهم، ووسيلة وإشارة، والله أعلم.

والمعاملات والعبادات مصلحة لهم في الدين والدنيا، ومنفعة لهم، فقد:

﴿ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً﴾[1].

وقد زين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً.

فإذا كان الإنسان يرى حسناً ما هو سيء كان استحسانه أو استصلاحه قد يكون من هذا الباب. وهذا بخلاف الذين جحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا، فإن باب جحود الحق ومعاندته من باب جهله والعمى عنه، والكفار فيهم هذا، وفيهم هذا.

* * *

الجهل والظلم في أهل الأهواء:

وكذلك في أهل الأهواء من المسلمين القسمان: فإن الناس كما أنهم في باب الحديث والفتوى يخطئون تارة، ويتعمدون الكذب أخرى، فكذلك هم في أحوال الديانات، وكذلك في الأفعال، قد يفعلون ما يعلمون أنه ظلم، وقد يعتقدون أنه ليس بظلم وهو ظلم، فإن الإنسان كما قال الله تعالى:

﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا﴾[2].

فتارة يجهل، وتارة يظلم، وذلك في قوة علمه، وهذا في قوة عمله.

واعلم أن هذا الباب مشترك بين أهل العلم والقول، وبين أهل الإرادة والعمل. فذلك يقول: هذا جائز أو حسن، بناء على ما رآه، وهذا يفعله من غير اعتقاد تحريمه، أو اعتقاد أنه خير له، كما يجد نفعاً في مثل السماع المحدث: سماع المكاء والتصدية[3]، واليراع التي يقال لها: الشبابة، والصفارة، والأوتار، وغير ذلك.

---

(١) سورة الكهف: آية ١٠٤. (٢) سورة الأحزاب: آية ٧٢.

(٣) المكاء والتصدية: هما الصفير والتصفيق.

وهذا يفعله لما يجده من لذته، وقد يفعله لما يجده من منفعة دينه، بزيادة أحواله الدينية، كما يفعل مع القرآن.

وهذا يقول: جائز، لما يرى من تلك المصلحة والمنفعة، وهو نظير المقالات المبتدعة.

وهذا يقول: هو حق لدلالة القياس الفعلي عليه.

وهذا يقول: يجوز، ويجب اعتقادها، وإدخالها في الدين إذا كانت كذلك.

وكذلك سياسات ولاة الأمور من الولاة والقضاء وغير ذلك.

* * *

العقل والحسن والقبح:

واعلم أنه لا يمكن العاقل أن يدفع عن نفسه أنه يميز بعقله بين الحق والباطل، والصدق والكذب، وبين النافع والضار، والمصلحة والمفسدة.

ولا يمكن للمؤمن أن يدفع عن إيمانه أن الشريعة جاءت بما هو الحق والصدق في المعتقدات، وجاءت بما هو النافع والمصلحة في الأعمال التي تدخل فيها الإعتقادات، ولهذا لم يختلف الناس أن الحسن والقبيح إذا فسر بالنافع والضار، والملائم للإنسان والمنافي له، واللذيذ والأليم - فإنه قد يعلم بالعقل. هذا في الأقوال.

وكذلك إذا فسر حسنه بأنه موجود، إذ كمال الموجود يوصف بالحسن، ومنه قوله تعالى:

﴿ولله الأسماء الحسنى﴾[1].

وقوله:

---

(١) سورة الأعراف: آية ١٨٠.

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[1].

كما نعلم أنه الحي أكمل من الميت في وجوده، وأن العالم أكمل من الجاهل، وأن الصادق أكمل من الكاذب فهذا أيضاً قد يعلم بالعقل.

وإنما اختلفوا في أن العقل هل يعتبر المنفعة والمضرة؟ وأنه هل باب التحسين واحد في الخالق والمخلوق؟

فأما الوجهان الأولان فثابتان في أنفسهما، ومنهما ما يعلم بالعقل، الأول في الحق المقصود، والثاني في الحق الموجود. . الأول متعلق بحب القلب وبغضه، وإرادته وكراهته، وخطابه بالأمر والنهي، والثاني متعلق بتصديقه وتكذيبه، وإثباته ونفيه، وخطابه الخبري المشتمل على النفي والإثبات.

والحق والباطل يتناول النوعين. فإن الحق يكون بمعنى الموجود الثابت، والباطل بمعنى المعدوم المنتفي، والحق بإزاء ما ينبغي قصده وطلبه وعمله، وهو النافع، والباطل بإزاء ما لا ينبغي قصده ولا طلبه ولا عمله، وهو غير النافع.

والمنفعة تعود إلى حصول النعمة واللذة والسعادة التي هي حصول اللذة، ودفع الألم هو حصول المطلوب، وحصول النعيم وزوال العذاب، وحصول الخير وزوال الشر.

* * *

المنافع المطلقة والراجحة:

ثم الموجود والنافع قد يكون ثابتاً دائماً، وقد يكون منقطعاً، لا سيما إذا كان زمناً يسيراً، فيستعمل الباطل كثيراً بإزاء ما لا يبقى من المنفعة، وإزاء ما لا يدوم من الوجود، كما يقال: الموت حق، والحياة باطل.

وحقيقة: أنه يستعمل بإزاء ما ليس من المنافع خالصاً أو راجحاً، كما تقدم

(١) سورة السجدة: آية ٧.

القول فيه فيما يزهد فيه، وهو ما ليس بنافع.

والمنفعة المطلقة هي: الخالصة، أو الراجحة. وأما ما يفوت أرجح منها، أو يعقب ضرراً ليس هو دونها، فإنها باطل في الاعتبار، والمضرة أحق باسم الباطل من المنفعة.

وأما ما يظن فيه منفعة وليس كذلك، أو يحصل به لذة فاسدة، فهذا لا منفعة فيه بحال.

فهذه الأمور التي يشرع الزهد فيها وتركها، وهي باطل، ولذلك [فإن] ما نهى عنه الله ورسوله باطل، ممتنع أن يكون مشتملاً على منفعة خالصة أو راجحة، ولهذا صارت أعمال الكفار والمنافقين باطلة، لقوله:

﴿لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب﴾[1]. الآية.

أخبر أن صدقة المرائي والمنان باطلة، لم يبق فيها منفعة له، وكذلك قوله تعالى:

﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم﴾[2].

وكذلك الإحباط في مثل قوله:

﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله﴾[3].

ولهذا تسمية الفقهاء بالعقود.

والعبادات بعضها صحيح، وبعضها باطل، وهو ما لم يحصل به مقصوده، ولم يترتب عليه أثره، فلم تكن فيه المنفعة المطلوبة منه، ومن هذا قوله:

---

(١) سورة البقرة: آية ٢٦٤. (٢) سورة محمد: آية ٣٣.
(٣) سورة المائدة: آية ٥.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾(١).

وقوله:

﴿مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾(٢).

وقوله:

﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾(٣).

ولذلك وصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة، ليست مطابقة ولا حقا، كما أن الأعمال ليست نافعة.

وقد توصف الاعتقادات والمقالات بأنها باطلة إذا كانت غير مطابقة، وإن لم يكن فيها منفعة، كقوله ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع»(٤).

فيعود الحق فيما يتعلق بالإنسان إلى ما ينفعه من علم وقول وعمل وحال، قال الله تعالى:

﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَداً رَابِياً وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾(٥).

---

(١) سورة النور: آية ٣٩. (٢) سورة آل عمران: ١١٧. (٣) سورة الفرقان: آية ٢٣.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الذكر. حديث: ٧٣. وأبو داود في كتاب الوتر باب: ٣٢. والترمذي في سننه في كتاب الدعوات باب: ٦٨. والنسائي في سننه في كتاب الاستعاذة باب ١٣، ١٨، ٢١، ٦٤. وابن ماجة في سننه في المقدمة باب: ٢٣، وفي كتاب الدعاء باب: ٢، ٣. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١٦٧/٢، ١٩٨، ٣٤٠، ٣٦٥، ٤٥١؛ ١٩٢/٣، ٢٥٥، ٢٨٣؛ ٣٧١/٤، ٣٨١. وأخرجه عبد بن حميد. وقال السيوطي: حديث صحيح.

(٥) سورة الرعد: آية ١٧.

وقال تعالى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وآمَنُوا بِمَا نُزِّل عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ. ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ﴾[1].

وإذا كان كذلك، وقد علم أن كل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل حابط لا ينفع صاحبه وقت الحاجة إليه، فكل عمل لا يراد به وجه الله فهو باطل، لأن ما لم يرد به وجه الله إما ألا ينفع بحال، وإما أن ينفع في الدنيا، ولا ينفع في الآخرة[2].

فأما الأول فظاهر، وكذلك منفعته في الآخرة بعد الموت، فإنه قد ثبت بنصوص المرسلين أنه بعد الموت لا ينفع الإنسان من العمل إلا ما أراد به وجه الله.

وأما في الدنيا فقد يحصل له لذات وسرور، وقد يجزي بأعماله في الدنيا، لكن تلك اللذات إن كانت تعقب ضرراً أعظم منها، وتفوّت أنفع منها وأبقى، فهي باطلة.

* * *

الكائنات والحق المقصود والحق الموجود:

وأما الكائنات فقد كانت معدومة منفية، فثبت أن أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد:

* ألا كل شيء ما خلا الله باطل *

وكما قال رسول الله ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد: ألا كل شيء ما

---

(١) سورة محمد: ١ - ٢ - ٣.

(٢) في الأصل: أو في الآخرة، وما أوردناه أصح.

خلا الله باطل»[1]. وأنها تجمع الحق الموجود، والحق المقصود.

وكل موجود بدون الله باطل، وكل مقصود بدون قصد الله فهو باطل.

وعلى هذين فقد فسر قوله تعالى:

﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾[2].

إلا ما أريد به وجهه، وكل شيء معدوم إلا من جهته. هذا على قول.

وأما القول الآخر، وهو المأثور عن طائفة من السلف، وبه فسر الإمام أحمد في رده على الجهمية والزنادقة، فقد قال أحمد:

« وأما قوله: ﴿كل شيء هالك إلا وجهه﴾ فذلك أن الله أنزل: ﴿كل من عليها فان﴾[3]. فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا في البقاء، فأنزل الله تعالى أنه يخبر عن أهل السموات والأرض أنكم تموتون، فقال: كل شيء من الحيوان هالك، يعني: ميتاً، إلا وجهه، فإنه حي لا يموت. فلما ذكر ذلك أيقنوا عند ذلك بالموت».

ذكر ذلك في رده على الجهمية قولهم: إن الجنة والنار تفنيان.

وقد تبين مما ذكرناه أن الحسن هو الحق والصدق، والنافع والمصلحة، والحكمة والصواب، وأن الشيء القبيح هو الباطل والكذب، والضار والمفسدة، والسفه والخطأ.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب مناقب الأنصار باب: ٢٦، وفي كتاب الأدب باب: ٩٠. ومسلم في صحيحه في كتاب الشعر حديث: ٣ - ٦. وابن ماجة في سننه في كتاب الأدب باب: ٤١. والإمام أحمد في مسنده ٢٤٨/٣، ٣٩٣، ٤٥٨، ٤٧٠. وقال السيوطي: حديث صحيح.

(٢) سورة القصص: آية ٨٨. (٣) سورة الرحمن: آية ٢٦.

فعل الله وفعل العباد

وأما موضع الاشتباه والنزاع واختلاف الخلائق فموضع واحد. وذلك أن فعل الله كله حسن جميل، قال الله عز وجل:

﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾[1].

وقال تعالى:

﴿صنع الله الذي اتقن كل شيء﴾[2].

وقال تعالى:

﴿ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها وذروا الذين يلحدون في أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون﴾[3].

وقال النبي ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال»[4].

وهو حكم عدل، قال تعالى:

﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لإله إلا هو العزيز الحكيم﴾[5].

---

(١) سورة السجدة: آية ٧. (٢) سورة النمل: آية ٨٨.

(٣) سورة الأعراف: آية ١٨٠.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الإيمان حديث: ١٤٧. وابن ماجة في كتاب الدعاء باب: ١٠. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ٤/١٣٣، ٣٤، ١٥١. كما أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة. والحاكم في مستدركه. وقال السيوطي: حديث صحيح.

(٥) سورة آل عمران: آية ١٨.

وقال تعالى:

إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها﴾[1].

وقال تعالى:

﴿وهو الحكيم الخبير﴾[2].

وهذا كله متفق عليه بين الأمة مجملاً غير مفسر. فإذا فسر تنازعوا فيه.

وذلك أن هذه الأعمال الفاسدة والآلام، وهذا الشر الوجودي المتعلق بالحيوان، وأن لا يخلو عن أن يكون عملاً من الأعمال، أو أن يكون ألماً من الآلام الواقعة بالحيوان، وهذا العمل القبيح والألم، شره من ضرره.

فالمعتزلة[3] ومن اتبعها من الشيعة تزعم أن الأعمال ليست من خلقه، ولا كونها شيء، وأن الآلام لا يجوز أن يفعلها إلا جزاء على عمل سابق، أو تعوض بنفع لاحق.

وكثير من أهل الإثبات ومن اتبعهم من الجبرية يقولون: بل الجميع خلقه، وهو يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، ولا فرق بين خلق المضار والمنافع، والخير والشر بالنسبة إليه.

ويقول هؤلاء: إنه لا يتصور أنه يفعل ظلماً ولا سفهاً أصلاً، بل لو فرض أنه فعل

---

(١) سورة النساء: آية ٤٠. (٢) سورة الأنعام: آية ١٨.

(٣) ظهرت المعتزلة في أول أمرها بأمرين ـ أولهما ـ القول بأن الإنسان يخلق أفعال نفسه، وأنه مختار في ما يفعل؛ ولذلك كان التكليف. وثاني الأمرين ـ اللذين ظهر بهما المعتزلة مسألة مرتكب الكبيرة، فقد قالوا إنه ليس بمؤمن ولا كافر، ولكنه فاسق، فهو في منزلة بين المنزلتين، أي بين الإيمان والكفر، وهو لا يدخل الجنة، لأنه لم يعمل عمل أهل الجنة، ولا مانع عندهم من أن يسمى مسلماً، باعتباره ينطق بالشهادتين.

هذا ما اشتهر به المعتزلة في أول أمرهم، ولكنهم في آخر الأمر حرروا مذهبهم الإعتقادي في خمسة أصول هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

أي شيء كان فعله حكمة وعدلاً وحسناً، إذ لا قبيح إلا ما نهى عنه، وهو لم ينه أحداً، ويسوون بين تنعيم الخلائق وتعذيبهم، وعقوبة المحسن ورفع درجات الكفار والمنافقين.

والفريقان متفقان على أنه [تعالى] لا ينتفع بطاعات العباد، ولا يتضرر بمعصيتهم، لكن الأولون يقولون: الإحسان إلى الغير حسن لذاته، وإن لم يعد إلى المحسن منه فائدة. والآخرون يقولون: ما حسن منا حسن منه، وما قبح منا قبح منه. والآخرون مع جمهور الخلائق ينكرون، والأولون يقولون: إذا أمر بالشيء فقد أراده منا، ولا يفعل الحسن والقبيح إلا ما ينفع أو يضر، كنحو ما يأمر الواحد منا غيره بشيء، فإنه لا بد أن يريده منه، ويعينه عليه، وقد أقدر الكفار بغاية القدرة، ولم يبق يقدر على أن يجعلهم يؤمنون اختياراً، وإنما كفرهم وفسوقهم وعصيانهم بدون مشيئته واختياره.

وآخرون يقولون: الأمرِ ليس مستلزم الإرادة أصلاً. وقد بينت التوسط بين هذين في غير هذا الموضع.

وكذلك أمره، فالأولون يقولون: لا يأمر إلا بما فيه مصلحة العباد، والآخرون يقولون: أمره لا يتوقف على المصلحة.

* * *

وهذه مقدمات تكشف هذه المشكلات:

المقدمة الأولى: أنه ليس ما حسن منه حسن منا، وليس ما يقبح منه يقبح منا. فإن المعتزلة شبهت الله بخلقه، وذلك أن الفعل يحسن منا لجلبه المنفعة، ويقبح لجلبه المضرة، ويحسن لأنا أمرنا به، ويقبح لأنا نهينا عنه.

وهذان الوجهان منتفيان في الله تعالى قطعاً، ولو كان الفعل يحسن باعتبار آخر، كما قال بعض الشيوخ:

ويقبح من سواك الفعل عندي وتفعله فيحسن منك ذاكا

المقدمة الثانية: أن الحسن والقبح قد يكونان صفة لأفعالنا، وقد يدرك بعض ذلك بالعقل، وإن فسر ذلك بالنافع والضار، والمنقص والمكمل، فإن أحكام الشارع فيما يأمر به وينهى عنه تارة تكون كاشفة للصفات الفعلية، ومؤكدة لها، وتارة تكون مبينة للفعل صفات لم تكن له قبل ذلك.

والفعل تارة يكون حسنه من جهة نفسه، وتارة يكون من جهة الأمر به، وتارة من الجهتين جميعاً.

ومن أنكر أن يكون للفعل صفات ذاتية لم يحسن إلا لتعلق الأمر به، وأن الأحكام بمجرد نسبة الخطاب إلى الفعل فقط، فقد أنكر ما جاءت به الشرائع من المصالح والمفاسد، والمعروف والمنكر، وما في الشريعة من المناسبات بين الأحكام وعللها، وأنكر خاصة الفقه في الدين، الذي هو معرفة حكمة الشريعة ومقاصدها ومحاسنها.

المقدمة الثالثة: أن الله خلق كل شيء، وهو على كل شيء قدير، ومن جعل شيئاً من الأعمال خارجاً عن قدرته ومشيئته فقد ألحد[1] في أسمائه وآياته، بخلاف ما عليه القدرية.

المقدمة الرابعة: أن الله أمر العبد بشيء فقد أراده منه إرادة شرعية دينية، وإن لم يرده منه إرادة قدرية كونية. فإثبات إرادته منه مطلقاً خطأ، ونفيها عن الأمر مطلقاً خطأ. وإنما الصواب التفصيل، كما جاء في التنزيل:

﴿يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر﴾[2].

﴿يريد الله أن يخفف عنكم﴾[3].

﴿ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج﴾[4].

---

(١) ألحد: مَالَ وانحرف إلى الباطل.
(٢) سورة البقرة: آية ١٨٥.
(٣) سورة النساء: آية ٢٨.
(٤) سورة المائدة: آية ٦.

وقال تعالى:

﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾(١).

وقال:

﴿أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم﴾(٢).

وقال:

﴿ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد﴾(٣).

وأمثال ذلك كثير.

المقدمة الخامسة: أن محبته ورضاه مستلزم للإرادة الدينية، والأمر الديني، وكذلك بغضه وغضبه مستلزم لعدم الإرادة الدينية، فالمحبة والرضا، والغضب والسخط ليس هو مجرد الإرادة. هذا قول جمهور أهل السنة.

ومن قال: إن هذه الأمور بمعنى الإرادة، كما يقول كثير من القدرية، وكثير من أهل الإثبات، فإنه يستلزم أحد أمرين:

إما الكفر والفسوق والمعاصي مما يكرهها الله ديناً، فقد كره كونها، وأنها واقعة بدون مشيئته وإرادته، وهذا قول القدرية.

أو يقول: إنه لما كان مريداً لها شاءها، فهو محب لها، راض بها، كما تقوله طائفة من أهل الإثبات.

وكلا القولين فيه ما فيه، فإن الله يحب المتقين، ويحب المقسطين، وقد رضي عن المؤمنين، ويحب ما أمر به أمر إيجاب واستحباب، وليس هذا المعنى ثابتاً في

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٢٥.   (٢) سورة المائدة: آية ٤١.

(٣) سورة البقرة: آية ٢٥٣.

الكفار والفجار والظالمين، ولا يرضى لعباده الكفر، ولا يحب كل مختال فخور، ومع هذا فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأحسن ما يعتذر به من قال هذا القول من أهل الإثبات: أن المحبة بمعنى الإرادة أنه أحبها كما أرادها كونا، فكذلك أحبها ورضيها كونا، وهذا فيه نظر مذكور في غير هذا الموضع.

فإن قيل: تقسيم الإرادة لا يعرف في حقنا، بل إن الأمر منه بالشيء إما أن يريده أو لا يريده. وأما الفرق بين الإرادة والمحبة فقد يعرف في حقنا.

فيقال: وهذا هو الواجب، فإن الله تعالى ليس كمثله شيء، وليس أمره لنا كأمر الواحد منا لعبده وخدمه. وذلك أن الواحد منا إذا أمر عبده، فإما أن يأمره لحاجته إليه، أو إلى المأمور به، أو لحاجته إلى الأمر فقط.

فالأول: كأمر السلطان جنده بما فيه حفظ ملكه، ومنافعهم له، فإن هداية الخلق وإرشادهم بالأمر والنهي هي من باب الإحسان إليهم، والمحسن من العباد يحتاج إلى إحسانه. قال تعالى:

﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها﴾(١).

وقال:

﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها﴾(٢).

والله تعالى لم يأمر عباده لحاجته إلى خدمتهم، ولا هو محتاج إلى أمرهم، وإنما أمرهم إحساناً منه ونعمة أنعم بها عليهم، فأمرهم بما فيه صلاحهم، ونهاهم عما فيه فسادهم، وإرسال الرسل وإنزال الكتب من أعظم نعمة على خلقه، كما قال:

---

(١) سورة الإسراء: آية ٧.

(٢) سورة فصلت: آية ٤٦.

﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾[1].

وقال تعالى:

﴿لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم﴾[2].

وقال تعالى:

﴿يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين. قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾[3].

فمن أنعم الله عليه مع الأمر بالأمثال فقد تمت النعمة في حقه كما قال:

﴿اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي﴾[4].

وهؤلاء هم المؤمنون.

ومن لم ينعم عليه بالأمتثال، بل خذله حتى كفر وعصى، فقد شقى لما بدل نعمة الله كفراً، كما قال:

﴿ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفروا وأحلوا قومهم دار البوار﴾[5].

والأمر والنهي الشرعيان لما كانا نعمة ورحمة عامة لم يضر ذلك عدم انتفاع بعض الناس بهما من الكفار، كإنزال المطر، وإثبات الرزق، هو نعمة عامة، وإن تضرر بها بعض الناس لحكمة أخرى.

كذلك مشيئته لما شاءه من المخلوقات وأعيانها وأفعالها، لا يوجب أن يحب كل شيء منها، فإذا أمر العبد يأمر فذاك إرشاد ودلالة، فإن فعل المأمور به صار محبوباً لله، وإلا لم يكن محبوباً وإن كان مراداً له، وإرادته له لمعنى آخر، فالتكوين غير التشريع.

---

(١) سورة الأنبياء: آية ١٠٧.
(٢) سورة آل عمران: آية ١٦٤.
(٣) سورة يونس: آية ٥٧ ـ ٥٨.
(٤) سورة المائدة: آية ٣.
(٥) سورة ابراهيم: آية ٤٨.

فإن قيل: المحبة والرضا يقتضيان ملاءمة ومناسبة بين المحب والمحبوب، ويوجب للمحب بدرك محبوبه فرحاً ولذة وسروراً.

وكذلك المبغض لا يكون إلا عن منافرة بين المبغض والمبغوض، وذلك يقتضي للمبغض بدرك المبغوض أذى وبغضاً، ونحو ذلك.

والملاءمة والمنافرة تقتضي الحاجة، إذ ما لا يحتاج الحي إليه لا يحبه، وما لا يضره كيف يبغضه؟ والله غني لا تجوز عليه الحاجة، إذ لو جازت عليه الحاجة للزم حدوثه وإمكانه، وهو غني عن العالمين، وقد قال تعالى في الحديث القدسي:

«يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني»[1].

فلهذا فسرت المحبة أو الرضا بالإرادة، إذ يفعل الضر والضر.

فيقال: الجواب من وجهين:

أحدهما: الإلزام. وهو أن نقول: الإرادة لا تكون إلا للمناسبة، بين المريد والمراد، وملاءمة في ذلك تقتضي الحاجة، وإلا فما لا يحتاج إليه الحي لا ينتفع به، ولا يريده.

ولذلك إذا أراد به العقوبة والإضرار لا يكون إلا لنفرة وبغض، وإلا فما لم يتألم به الحي أصلاً لا يكرهه ولا يدفعه.

وكذلك نفس نفع الغير وضرره، هو في الحي متنافر من الحاجة، فإن الواحد منا إنما يحن إلى غيره لجلب منفعة، أو دفع مضرة، وإنما يضر غيره لجلب منفعة، أو دفع مضرة.

فإذا كان الذي يثبت صفة وينفي أخرى يلزمه فيما أثبت نظير ما يلزمه فيما نفاه، لم يكن إثبات إحداهما ونفي الأخرى أولى من العكس. ولو عكس عاكس فنفى ما أثبته

---

(١) رواه مسلم بن الحجّاج في صحيحه في كتاب البر حديث: ٥٥.

من الإرادة، وأثبت ما نفاه من المحبة لما ذكره لم يكن بينهما فرق.

وحينئذ فالواجب إما نفي الجميع، ولا سبيل إليه للعلم الضروري بوجود نفع الخلق، والإحسان إليهم، وأن ذلك يستلزم الإرادة، وإما إثبات الجميع، كما جاءت به النصوص.

وحينئذ ممن توهم أنه يلزم من ذلك محذور أو أحد الأمرين لازم إما أن ذلك المحذور لا يلزم، أو أنه لزم فليس بمحذور.

الجواب الثاني: أن الذي يعلم قطعاً هو أن الله قديم، واجب الوجود، كامل، وأنه لا يجوز عليه الحدوث ولا الإمكان، ولا النقص، لكن هذه الأمور التي جاءت بها النصوص مستلزمة للحدوث والإمكان أو النقص هي موضع النظر.

فإن الله غني واجب بنفسه، وقد عرف أن قيام الصفات به لا يلزم حدوثه، ولا إمكانه ولا حاجته، وإن قول القائل بلزوم افتقاره إلى صفاته اللازمة بمنزلة قوله: مفتقر إلى ذاته.

ومعلوم أنه غني بنفسه، وأنه واجب الوجود بنفسه، وأنه موجود بنفسه، فتوهم حاجة نفسه إلى نفسه إن عنى به أن ذاته لا تقوم إلا بذاته فهذا حق، فإن الله غني عن العالمين، وعن خلقه، وهو غني بنفسه.

وأما إطلاق القول بأنه غني عن نفسه فهو باطل، فإنه محتاج إلى نفسه، وفي إطلاق كل منهما إيهام معنى فاسد، ولا خالق إلا الله تعالى.

فإذا كان الله سبحانه عليماً يحب العلم، عفواً يحب العفو، جميلاً يحب الجمال، نظيفاً يحب النظافة، طيباً يحب الطيب، وهو يحب المحسنين، والمتقين، والمقسطين، وهو سبحانه الجامع لجميع الصفات المحبوبة، والأسماء الحسنى، والصفات العلى، وهو يحب نفسه، ويثني على نفسه بنفسه، والخلق لا يحصون ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه.

فالعبد المؤمن يحب نفسه، ويحب في الله من أحب الله، وأحبه الله، فالله

سبحانه أولى بأن يحب نفسه، ويحب في نفسه عباده المؤمنين، ويبغض الكافرين، ويرضى عن هؤلاء، ويفرح بهم، ويفرح بتوبة عبده التائب من أولئك، ويمقت الكفار، ويبغضهم، ويحب حمد نفسه، والثناء عليه، كما قال النبي ﷺ للاسود بن سريع لما قال: إنني حمدت ربي بمحامد، فقال: «إن ربك يحب الحمد»[1].

وقال ﷺ: «لا أحد أحب إليه المدح من الله، ولا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل، ولا أحد أصبر على أذى من الله، يجعلون له ولداً وشريكاً وهو يعافيهم ويرزقهم»[2].

فهو يفرح بما يحبه، ويؤذيه ما يبغضه، ويصبر على ما يؤذيه، وحبه ورضاه وفرحه وسخطه وصبره على ما يؤذيه كل ذلك من كماله، وكل ذلك من صفاته وأفعاله، وهو الذي خلق الخلائق وأفعالهم، وهم لن يبلغوا ضره فيضروه ولن يبلغوا نفعه فينفعوه.

وإذا فرح ورضي بما فعله بعضهم فهو سبحانه الذي خلق فعله، كما أنه إذا فرح ورضي بما يخلقه فهو الخالق، وكل الذين يؤذون الله ورسوله هو الذي مكنهم وصبر على أذاهم بحكمته، فلم يفتقر إلى غيره، ولم يخرج شيء عن مشيئته، ولم يفعل أحد ما لا يريد وهذا قول عامة القدرية[3] ونهاية الكمال والعزة.

وأما الإمكان فيلزم لو افتقر وجوده إلى فرح غيره.

ومن تأمل نصوص الكتاب والسنة وجدها في غاية الإحكام والإتقان، وأنها مشتملة على التقديس لله عن كل نقص، والإثبات لكل كمال، وأنه تعالى ليس له

---

(١) رواه الطبراني في الكبير. وقال السيوطي: حديث ضعيف.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) هكذا في الأصل، ويلاحظ ان علماء الكلام والعقائد بوجه عام قد درجوا على تلقيب المعتزلة بالقدرية لأنهم اتفقوا على أن العبد قادر خالق لأفعاله خيرها وشرها. وعلى هذا فسياق ابن تيمية الكلامي هنا يقتضي انه لا يعني بلفظ القدرية في هذا الموضع المعتزلة، بل يعني أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بالقدر خيره وشره. أو لعل العبارة فيها تعريف.

كمال ينتظر، بحيث يكون قبله ناقصاً، بل من الكمال أنه يفعل ما يفعله بعد أن يكن فاعله، وأنه إذا كان كاملاً بذاته وصفاته وأفعاله، لم يكن كاملاً بغيره، ولا مفتقراً إلى سواه، بل هو الغني ونحن الفقراء، وقال تعالى:

﴿لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق﴾[1].

وهو سبحانه في محبته ورضاه ومقته وسخطه وفرحه وأسفه وصبره وعفوه ورأفته له الكمال الذي لا تدركه الخلائق، وفوق الكمال، إذ كل كمال فمن كماله يستفاد.

وله الثناء الحسن الذي لا تحصيه العباد، وإنما هو كما أثنى على نفسه، له الغنى الذي لا يفتقر إلى سواه.

﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً. لقد أحصاهم وعدهم عداً. وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾[2].

* * *

فهذا الأصل العظيم وهو مسألة خلقه وأمره، وما يتصل به من صفاته وأفعاله، من محبته ورضاه، وفرحه بالمحبوب، وبغضه وصبره على ما يؤذيه، هي متعلقة بمسائل القدر، ومسائل الشريعة، والمنهاج الذي هو المسؤول عنه، ومسائل الصفات، ومسائل الثواب والعقاب، والوعد والوعيد.

وهذه الأصول الأربعة كلية جامعة، وهي متعلقة به وبخلقه. وهي في عمومها وشمولها، وكشفها للشبهات تشبه مسألة الصفات الذاتية، والفعلية، ومسألة الذات والحقيقة والحد وما يتصل بذلك من مسائل الصفات، والكلام في حلول الحوادث، ونفي الجسم، وما في ذلك من تفصيل وتحقيق.

فإن المعطلة والملحدة في أسمائه وآياته كذبوا بحق كثير جاءت به الرسل، بناء

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٨١.   (٢) سورة مريم: آية ٩٣، ٩٤، ٩٥.

على ما اعتقدوه من نفي الجسم والعرض، ونفي حلول الحوادث، ونفي الحاجة.

وهذه الأشياء يصح نفيها باعتبار، ولكن ثبوتها يصح باعتبار آخر، فوقعوا في نفي الحق الذي لا ريب فيه، الذي جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب وفطرت عليه الخلائق، ودلت عليه الدلائل السمعية والعقلية، والله أعلم.

رسالة في شرح حديث:
«كان الله ولم يكن شيء قبله».

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وسلم تسليما.

* * *

فصل

في نص الحديث

في صحيح البخاري وغيره من حديث عمران بن حصين[1] رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «يا بني تميم، اقبلوا البشرى» قالوا: قد بشرتنا، فأعطنا.

فأقبل على أهل اليمن فقال: «يا أهل اليمن، اقبلوا البشرى، إذ لم يقبلها بنو تميم». فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله. قالوا: جئناك لنتفق في الدين، ولنسألك عن أول هذا الأمر. فقال: «كان الله ولم يكن شيء قبله». وفي لفظ «معه». وفي لفظ «غيره». «وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض».

وفي لفظ «ثم خلق السموات والأرض». ثم جاءني رجل فقال: أدرك ناقتك. فذهبت فإذا السراب ينقطع دونها، فوالله لوددت أني تركتها ولم أقم[2].

قوله: «كتب في الذكر» يعني: اللوح المحفوظ. كما قال:
﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر﴾[3]

---

(١) عِمْران بن الحُصَين: من علماء الصحابة. أسلم عام خيبر (سنة ٧ هـ)، وله في كتب الحديث ١٣٠ حديثاً. مات سنة (٥٢ هـ = ٦٧٢ م). تذكرة الحفاظ ١: ٢٨ وتهذيب التهذيب ٨: ١٢٥ وصفة الصفوة ١: ٢٨٣ وطبقات ابن سعد ٧: ٤.

(٢) حديث صحيح. أخرجه البخاري في كتاب: «بدء الخلق» و «التوحيد» وقد ذكر البخاري رواية: «قبله» ورواية «غيره»، ولم يذكر رواية: «معه». وأخرجه البيهقي برواية: «غيره» في «الأسماء والصفات» (٦، ٢٧٠). كما أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٤: ٤٣١ بلفظ: «كان الله تبارك وتعالى قبل كل شيء».

(٣) سورة الانبياء: آية ١٠٥.

أي: من بعد اللوح المحفوظ. يسمى ما يكتب في الذكر ذكرا، كما يسمى ما يكتب فيه كتاباً، كقوله عز وجل:

﴿إنه لقرآن كريم. في كتاب مكنون﴾[1]

(١) سورة الواقعة: ٧٧، ٧٨.

أقوال العلماء في معنى الحديث

والناس في هذا الحديث على قولين:

القول الأول:

منهم من قال: إن مقصود الحديث: إخباره بأن الله كان موجوداً وحده، ثم إنه ابتدأ إحداث جميع الحوادث، وإخباره بأن الحوادث لها ابتداء بجنسها وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأن جنس الزمان حادث لا في زمان، وجنس الحركات والمتحركات حادث، وأن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل، ولا كان الفعل ممكناً.

ثم هؤلاء على قولين:

منهم من يقول: وكذلك صار متكلماً، بعد أن لم يكن يتكلم بشيء، بل ولا كان الكلام ممكناً له.

ومنهم من يقول: الكلام أمر يوصف به؛ بأن يقدر عليه، لا أن يتكلم بمشيئته وقدرته، بل هو أمر لازم لذاته، بدون قدرته ومشيئته. ثم هؤلاء منهم من يقول: هو المعنى دون اللفظ المقروء، عبر عنه بكل من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان. ومنهم من يقول: بل هو حروف وأصوات لازمة لذاته، تزل ولا تزال، وكل ألفاظ الكتب التي أنزلها، وغير ذلك.

القول الثاني:

والقول الثاني في معنى الحديث: أنه ليس مراد الرسول ﷺ هذا، بل إن

الحديث يناقض هذا. ولكن مراده: إخباره عن خلق هذا العالم المشهور، الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن الكريم العظيم بذلك في غير موضع، فقال تعالى:

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾[1]

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[2].

فأخبر ﷺ: أن تقدير خلق هذا العالم المخلوق في ستة أيام، وكان حينئذ عرشه على الماء، كما أخبر بذلك القرآن، والحديث المتقدم الذي رواه البخاري في صحيحه عن عمران رضي الله عنه.

ومن هذا الحديث الذي رواه الترمذي وأبو داود وغيرهما عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب. قال: وما أكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة»[3].

فهذا القلم خلقه لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خلق السموات والأرض

---

(١) سورة هود: آية ٧.

(٢) رواه مسلم في كتاب القدر، حديث: ١٦. كما رواه أبو داود والترمذي وابن ماجة وأحمد ابن حنبل والطيالسي، ورواه البيهقي في: «الأسماء» (٢٦٩)، وفي رواية له، «فرغ الله عز وجل من المقادير وأمور الدنيا قبل أن يخلق السموات والأرض وعرشه على الماء بخمسين ألف سنة».

(٣) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن، سورة: ٦٨. وأبو داود في كتاب السنة، باب: ١٦. وزيد بن علي في مسنده، حديث: ٩٧٧. وأحمد بن حنبل، الجزء الخامس، ص ٣١٧. كما رواه الطيالسي في مسنده، حديث: ٥٧٧. قال الألباني في تخريج السنة: حديث صحيح، كتاب السنة ١: ٤٨. والحديث له طرق متعددة ذكرها صاحب كتاب السنة وخرجها الشيخ الألباني في تخريج السنة.

بخمسين ألف سنة، وكان مخلوقاً قبل خلق السموات والأرض، وهو أول ما خلق الله من هذا العالم، وخلقه بعد العرش، كما دلت عليه النصوص.

وهو قول جمهور السلف، كما قد ذكرت أقوال السلف في غير هذا الموضع. والمقصود هنا بيان ما دلت عليه نصوص الكتاب والسنة.

أدلة القول الثاني

والدليل على هذا القول الثاني وجوه.

الوجه الأول:

أن قول أهل اليمن: «جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر». إما أن يكون الأمر المشار إليه هذا العالم، أو جنس المخلوقات.

فإن كان المراد هو الأول، كان النبي ﷺ قد أجابهم، لأنه أخبرهم عن أول خلق هذا العالم.

وإن كان المراد الثاني لم يكن قد أجابهم، لأنه لم يذكر أول الخلق مطلقاً، بل قال: «كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض».

فلم يذكر إلا خلق السموات والأرض، ولم يذكر خلق العرش، مع أن العرش مخلوق أيضاً، فإنه [تعالى] يقول:
﴿وهو رب العرش العظيم﴾(1)

وهو خالق كل شيء: العرش وغيره. ورب كل شيء: العرش وغيره.

وفي حديث أبي رزين أخبر النبي ﷺ بخلق العرش(2)، وأما في حديث عمران

(1) سورة التوبة: آية ١٢٩.
(2) عن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله: أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات =

فلم يخبر بخلقه، بل أخبر بخلق السموات والأرض، فعلم أنه أخبر بأول خلق هذا العالم، لا بأول الخلق مطلقاً.

وإذا كان إنما أجابهم بهذا، علم أنهم سألوه عن هذا، ولم يسألوه عن أول الخلق مطلقاً.

فإنه لا يجوز أن يكون أجابهم عما لم يسألوا عنه، ولم يجبهم عما سألوا عنه. بل هو ﷺ منزه عن ذلك، مع أن لفظه إنما يدل على هذا، ولا يدل على ذكره أول الخلق.

وإخباره بخلق السموات والأرض بعد أن كان عرشه على الماه يقصد به الإخبار عن ترتيب بعض المخلوقات على بعض، فإنهم لم يسألوه عن مجرد الترتيب، وإنما سألوه عن أول هذا الأمر، فعلم أنهم سألوه عن مبدأ خلق هذا العالم، فأخبرهم بذلك، كما نطق في أولها: في أولها خلق الله السموات والأرض. وبعضهم يشرحها: في البدء، أو في الابتداء خلق الله السموات والأرض.

والمقصود أن فيها الإخبار بابتداء خلق السموات والأرض، وأن كان الماء غامراً للأرض، وكانت الريح تهب على الماء، فأخبر أنه حينئذ كان هذا ماء وهواء وترابا، وأخبر في القرآن العظيم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، وفي الآية الأخرى:

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين﴾[1]

وقد جاءت الآثار عن السلف بأن السماء خلقت من بخار الماء، وهو الدخان.

والمقصود هنا أن النبي ﷺ أجابهم عما سألوه عنه، ولم يذكر إلا ابتداء خلق

= والأرض؟ قال: «كان في عماء ما فوقه هواء وما تحته هواء. ثم خلق العرش فاستوى عليه» رواه أبو داود وابن ماجة وقال الذهبي: إسناده حسن، ورواه الترمذي وحسنه لكن بلفظ «وخلق عرشه على الماء». قال يزيد بن هارون: العماء، أي ليس معه شيء.

(١) سورة فصلت: آية ١١.

السموات والأرض، فدل على أن قولهم: «جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر». كان مرادهم: خلق هذا العالم، والله أعلم.

* * *

الوجه الثاني:

أن قولهم: «هذا الأمر» إشارة إلى حاضر موجود. والأمر يراد به المصدر، ويراد به المفعول به، وهو المأمور الذي كونه الله بأمره، وهذا مرادهم، فإن هذا الامر[1] ليس المشهود اشار إليه، بل المشهود المشار إليه هذا المأمور به[2]، قال تعالى:

﴿وكان أمر الله قدرا مقدورا﴾[3]

وقال تعالى: ﴿أتى أمر الله﴾[4]

ونظائره متعددة، ولو سألوه عن أول الخلق مطلقاً لم يشيروا إليه بهذا، فإن ذاك لم يشهدوه، فلا يشيرون إليه بهذا، بل لم يعلموه أيضاً، فإن ذاك لا يعلم إلا بخبر الأنبياء، والرسول ﷺ لم يخبرهم بذلك.

ولو كان قد أخبرهم به لما سألوه عنه، فعلم أن سؤالهم كان عن أول هذا العالم المشهود.

* * *

الوجه الثالث:

أنه ﷺ قال: «كان الله ولا شيء قبله». وقد روى «معه» وروى «غيره». والألفاظ الثلاثة في البخاري، والمجلس كان واحدا، وسؤالهم وجوابه كان في نفس المجلس، وعمران الذي روى الحديث لم يقم منه حين انقضى المجلس، بل قام لما أخبر بذهاب راحلته قبل فراغ المجلس، وهو المخبر بلفظ الرسول.

---

(١) الذي هو قوله للشيء كن فيكون.

(٢) وهو هذا العالم المشهور.

(٣) سورة الأحزاب: آية ٣٨. (٤) سورة النحل: آية ٠١

فدل على أنه إنما ثبت عنه لفظ «القبل»، فإنه ثبت في صحيح مسلم عند أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»[1]. وهذا موافق ومفسر لقوله سبحانه وتعالى:

﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[2]

وإذا ثبت في هذا الحديث لفظ [القبل] فقد ثبت أن الرسول ﷺ قال، واللفظان الآخران لا يثبت واحد منهما ابدا. وكان أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ القبل «كان الله ولا شيء قبله». مثل الحميدي[3]، والبغوي[4]، وابن الاثير[5]، وغيرهم.

وإذا كان إنما قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله». لم يكن في هذا اللفظ تعرض لابتداء الحوادث، ولا لأول مخلوق.

* * *

الوجه الرابع:

إنه قال فيه: «كان الله ولم يكن شيء قبله». أو «معه» أو «غيره». «وكان عرشه

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٨: ٧٨ ـ ٧٩، وأوله: «كان رسول الله (ﷺ) يأمرنا إذا أخذنا مضجعنا أن نقول...». حديث صحيح.

(٢) سورة الحديد: آية ٣.

(٣) عبدالله بن الزبير الحُمَيْدي: أحد الأئمة في الحديث. وهو شيخ البخاري، ورئيس أصحاب ابن عيينة. روى عنه البخاري ٧٥ حديثاً. مات سنة (٢١٩ هـ = ٨٣٤ م). تهذيب التهذيب ٥: ٢١٥، والإنتقاء ١٠٤، والأعلام ٤: ٨٧.

(٤) أبو القاسم البغوي (٢١٣ ـ ٣١٧ هـ = ٨٢٨ ـ ٩٢٩ م): حافظ للحديث، من العلماء. كان محدّث العراق في عصره. ميزان الإعتدال ٢: ٧٢ ولسان الميزان ٣: ٣٣٨ وتاريخ بغداد ١٠: ١١١ وتذكرة الحفاظ ٢: ٢٤٧.

(٥) ابن الأثير، المبارك بن محمد (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ ـ ١٢١٠ م): المحدّث اللغوي الأصولي. من كتبه «النهاية» في غريب الحديث، و«جامع الأصول في أحاديث الرسول». بغية الوعاة ٣٨٥ ووفيات الأعيان ١: ٤٤١ والأعلام ٥: ٢٧٢.

على الماء، وكتب في الذكر كل شيء».

فأخبر عن هذه الثلاثة بلفظ الواو، ولم يذكر في شيء منها «ثم»، وإنما جاء «ثم» في قوله: «خلق السموات والأرض». وبعض الرواة ذكر فيه خلق السموات والأرض بثم، وبعضهم ذكرها بالواو. فأما الجمل الثلاث المتقدمة فالرواة متفقون على أن ذكرها بلفظ الواو.

ومعلوم أن لفظ الواو لا يفيد الترتيب على الصحيح الذي عليه الجمهور، فلا يفيد الإخبار بتقديم بعض ذلك على بعض.

وإن قدر أن الترتيب مقصود، إما من ترتيب الذكر، لكونه قدم بعض ذلك على بعض، وإما من جعل الواو[1] للترتيب عند من يقول به، فإنما فيه تقديم كونه على كون العرش على الماء، وتقديم كون العرش على الماء على كتابته في الذكر كل شيء، وتقديم كتابته في الذكر كل شيء على تقديم خلق السموات والأرض.

وليس في هذا الذكر أول المخلوقات مطلقا، بل ولا فيه الإخبار بخلق العرش والماء، وإن كان ذلك كله مخلوقا، كما أخبر به في مواضع أخر.

لكن في جواب أهل اليمن إنما كان مقصودا إخباره إياهم عن بدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام، لا ابتداء ما خلقه الله قبل ذلك.

* * *

الوجه الخامس:

إن ذكر تلك الأشياء بما يدل على كونها ووجودها، ولم يتعرض لابتداء خلقها، وذكر السموات والأرض بما يدل على خلقها.

وسواء كان قوله: «وخلق السموات والأرض». أو «ثم خلق السموات

---

(١) في الأصل: وإما من الواو . خطأ.

والأرض» . فعلى التقديرين أخبر بخلق ذلك، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، وإن كان قد خلق من مادة، كما في صحيح مسلم عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[1].

فإن كان لفظ الرسول ﷺ «ثم خلق» فقد دل على أن خلق السموات والأرض بعد ما تقدم ذكره من كون عرشه على الماء، ومن كتابته في الذكر.

وهذا اللفظ أولى بلفظ رسول الله ﷺ، لما فيه من تمام البيان، وحصول المقصود بلفظة الترتيب.

وإن كان لفظه الواو فقد دل سياق الكلام على أن مقصوده أنه خلق السموات والأرض بعد ذلك.

وكما دل على ذلك سائر النصوص فإنه قد علم أنه لم يكن مقصوده الإخبار بخلق العرش ولا الماء، فضلا عن أن يقصد أن خلق ذلك كان مقارنا لخلق السموات والأرض.

وإذا لم يكن في اللفظ ما يدل على خلق ذلك إلا مقارنة خلقه لخلق السموات والأرض، وقد أخبر عن خلق السموات، مع كون ذلك، علم أن مقصوده أنه خلق السموات والأرض حين كان العرش على الماء، كما أخبر بذلك في القرآن[2].

وحينئذ يجب أن يكون العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، كما أخبر بذلك في الحديث الصحيح، حيث قال: «قدر الله مقادير الخلائق قبل

---

(١) ولأحمد في مسنده كذلك.

(٢) المقصود: انه إذا كان لفظ الحديث ليس فيه ما يدل على أن خلق العرش والماء مصاحب لخلق السموات والأرض، بمعنى انه لم يخلقهم جميعاً في وقت واحد. وكان فيه ـ أي في الحديث ـ ما يدل على ان الرسول (ﷺ) قد أخبر عن خلق السموات والأرض مع كون عرشه على الماء، ومن كتابته في الذكر، إذا كان ذلك، علم أن خلق السموات والأرض حدث حين كان العرش على الماء، فالعرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض بزمان.

أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[1].

فأخبر أن هذا التقدير السابق لخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة حين كان عرشه على الماء.

* * *

الوجه السادس:

إن النبي ﷺ إما أن يكون قد قال: «كان الله ولم يكن قبله شيء» وإما أن يكون قال: «ولا شيء معه» أو «غيره».

فإن كان إنما قال اللفظ الأول، لم يكن فيه تعرض لوجوده تعالى قبل جميع الحوادث.

وإن كان قد قال الثاني أو الثالث، فقوله «ولم يكن شيء معه، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر». إما أن يكون المراد به أنه حين كان لا شيء معه كان عرشه على الماء، أو كان بعد ذلك كان عرشه على الماء.

فإن أراد الأول كان معناه: لم يكن معه شيء من هذا الأمر المسؤول عنه، وهو هذا العالم. ويكون المراد: أنه كان الله قبل هذا العالم المشهود، وكان عرشه على الماء.

وأما القسم الثالث[2]، وهو أن يكون المراد به: كان لا شيء معه، وبعد ذلك كان عرشه على الماء، وكتب في الذكر، ثم خلق السموات والأرض. فليس في هذا إخبار بأول ما خلقه الله مطلقا، بل ولا فيه إخباره بخلق العرش والماء، بل إنما فيه إخباره بخلق السموات والأرض، ولا صرح فيه بأن كون عرشه على الماء كان بعد ذلك، بل ذكره بحرف الواو، والواو لمطلق الجمع، والتشريك بين المعطوف والمعطوف عليه.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) هكذا في الأصل، والأصح: وأما إن أراد الثاني.

وإذا كان الحديث لم يبين[1] أول المخلوقات، ولا ذكر ما [إذا][2] كان خلق العرش الذي أخبر أنه كان على الماء مقرونا بقوله: «كان الله ولا شيء معه». دل ذلك على أن النبي ﷺ لم يقصد الإخبار بوجود الله وحده قبل كل شيء، وبابتداء المخلوقات بعد ذلك، إذ لم يكن لفظه دالا على ذلك، وإنما قصد الإخبار بابتداء خلق السموات والأرض.

* * *

الوجه السابع:

أن يقال: لا يجوز أن يجزم بالمعنى الذي أراده رسول الله ﷺ، إلا بدليل يدل على مراده. فلو قدر أن لفظه يحتمل هذا المعنى وهذا المعنى، لم يجز الجزم بأحدهما إلا بدليل، فيكون إذا كان الراجح هو أحدهما، فمن جزم[3] بأن الرسول ﷺ أراد[4] ذلك المعنى الآخر فهو مخطىء.

* * *

الوجه الثامن:

أن يقال: هذا المطلوب لو كان حقا لكان أجل من أن يحتج عليه بلفظ محتمل في خبر لم يروه إلا واحد. ولكان ذكر هذا في القرآن والسنة من أهم الأمور، لحاجة الناس إلى معرفة ذلك، لما وقع فيه من الاشتباه والنزاع، واختلاف الناس.

فلما لم يكن في السنة ما يدل على هذا المطلوب، لم يجز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث بسياقه.

وإنما سمعوا أن النبي ﷺ قال: «كان ولا شيء معه». فظنوه لفظا ثابتا مع مجرده

---

(١) في الأصل: لم يبين الحديث.

(٢) ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.

(٣) في الأصل: لمن جزم. وما أوردناه أوضح.

(٤) في الأصل: إن أراد. وما أوردناه أوضح.

عن سائر الكلام الصادر عن النبي ﷺ، وظنوا [أن] معناه: الإخبار بتقدمه تعالى على كل شيء.

وبنوا على هذين الظنين نسبة ذلك الى النبي ﷺ، وليس عندهم بواحدة من المقدمتين علم، بل ولا ظن يستند إلى أمارة.

وهب أنهم لم يجزموا بأن مراده المعنى الآخر، فليس عندهم ما يوجب الجزم بهذا المعنى، وجاء بينهم الشك وهم ينسبون الى الرسول ﷺ ما لا علم عندهم بأنه قاله، وقد قال تعالى:

﴿ولا تقف ما ليس لك به علم﴾[1]

وقال تعالى:

﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾[2]
وهذا كله لا يجوز.

* * *

الوجه التاسع[3]:

إنه قد زاد فيه بعض الناس «وهو الآن على ما عليه كان». وهذه الزيادة إنما زادها بعض الناس من عنده، وليست في شيء من الروايات.

ثم إن منهم من يتأولها على أنه ليس معه الآن موجود، بل وجوده عين وجود المخلوقات، كما يقوله أهل وحدة الوجود، الذين يقولون: عين وجود الخالق هو

---

(١) سورة الإسراء: آية ٣٦.
(٢) سورة الأعراف: آية ٣٣.
(٣) ما بين المعقوفتين سقطت من الأصل.

عين وجود المخلوق، كما يقوله ابن عربي[1]، وابن سبعين[2]، والقونوي[3]، والتلمساني[4]، وابن الفارض[5]، ونحوهم.

وهذا القول مما يعلم بالاضطرار شرعا وعقلا أنه باطل.

* * *

الوجه العاشر:

إن كثيرا من الناس يجعلون هذا عمدتهم من جهة السمع: أن جميع الحوادث لها ابتداء، وأن جنس الحوادث مسبوق بالعدم، إذا لم يجدوا في الكتاب والسنة ما ينطق به، مع أنهم يحكون هذا عن المسلمين واليهود والنصارى، كما يوجد مثل هذا في كتب أكثر أهل الكلام المبتدع في الإسلام، الذي ذمه السلف، و[الذي خالفوا به الشرع والعقل.

---

(١) محيي الدين بن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ = ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م): ملقب بالشيخ الأكبر. فيلسوف، من أئمة المتكلمين في كل علم، وهو قدوة القائلين بوحدة الوجود. فوات الوفيات ٢: ٢٤١ ومفتاح السعادة ١: ١٨٧ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٣١ وميزان الإعتدال ٣: ١٠٨.

(٢) عبد الحق ابن سبعين (٦١٣ ـ ٦٦٩ هـ = ١٢١٦ ـ ١٢٧٠ م): من زهاد الفلاسفة، ومن القائلين بالوحدة المطلقة. له أتباع يعرفون بالسبعينية. فوات الوفيات ١: ٢٤٧ ونفح الطيب ١: ٤٢١ والبداية والنهاية ١٣: ٢٦١.

(٣) محمد بن إسحاق القُونَوِي: صوفي، من كبار تلاميذ الشيخ ابن عربي. تزوج ابن عربي أمه، ورباه. وكان شافعي المذهب. مات سنة (٦٧٣ هـ).
مفتاح السعادة ١: ٤٥١ ثم ٢: ٢١١ وطبقات السبكي ٥: ١٩.

(٤) العفيف التلمساني(٦١٠ـ٦٩٠هـ = ١٢١٣ـ١٢٩١ م): شاعر، متصوف على طريقة ابن عربي في أقواله وأفعاله. وله «شرح فصوص الحكم» لابن عربي. انظر: البداية والنهاية ١٣: ٣٢٦، وشذرات الذهب ٥: ٤١٢ وفوات الوفيات ١: ١٧٨.

(٥) عمر بن علي بن الفارض (٥٧٦ ـ ٦٣٢ هـ) = (١١٨١ ـ ١٢٣٥ م): أشعر المتصوفين. يلقب بسلطان العاشقين. في شعره فلسفة تتصل بوحدة الوجود. انظر: وفيات الأعيان ١: ٣٨٣، وميزان الإعتدال ٢: ٢٦٦، وشذرات الذهب ٥: ١٤٩ ـ ١٥٣، ولسان الميزان ٤: ٣١٧، ومفتاح السعادة ١: ٢٠١.

وبعضهم يحكيه إجماعا للمسلمين، وليس معهم بذلك نقل، لا عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن الكتاب والسنة، فضلا عن أن يكون هو قول جميع المسلمين.

وبعضهم يظن أن من خالف ذلك فقد قال بقدم العالم، ووافق الفلاسفة الدهرية، لأنه نظر في كثير من كتب الكلام، فلم يجد فيها إلا قولين:

قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم، إما صورته وأما مادته، سواء قيل: هو موجود بنفسه، أو معلول لغيره.

وقول من رد على هؤلاء من أهل الكلام: الجهمية، والمعتزلة، والكرامية، الذين يقولون: إن الرب لم يزل لا يفعل شيئا، ولا يتكلم بشيء، ثم أحدث الكلام والفعل بلا سبب أصلا.

وطائفة أخرى كالكلابية ومن وافقهم، يقولون: إن الكلام قديم العين، إما معنى واحد، وإما حروف وأصوات قديمة أزلية، قديمة الأعيان.

ويقول هؤلاء: إن الرب لم يزل لا يفعل شيئا، ولا يتكلم بمشيئته وقدرته، ثم حدث ما يحدث بقدرته ومشيئته، إما قائما بذاته أو منفصلا عنه عند من يجوز ذلك، أو منفصلا عنه عند من لم يجوز قيام ذلك بذاته.

ومعلوم أن هذا القول أشبه بما أخبرت به الرسل، من أن الله خالق كل شيء، وأن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام.

فمن ظن أنه ليس للناس إلا هذان القولان، وكان مؤمنا بأن الرسل لا يقولون إلا حقا، يظن أن هذا قول الرسل ومن اتبعهم. ثم إذا طولب بنقل هذا القول عن الرسل، لم يمكنه ذلك، ولم يكن لأحد أن يأتي بآية أو حديث يدل على ذلك، لا نصا ولا ظاهرا، بل ولا يمكنه أن ينقل ذلك عن أحد من أصحاب النبي ﷺ، والتابعين لهم بإحسان.

وقد جعلوا ذلك معنى حدوث العالم الذي هو أول مسائل أصول الدين عندهم،

فيبقى أصل الدين الذي هو دين الرسل عندهم ليس عندهم ما يعلمون به أن الرسول قاله، ولا في العقل ما يدل عليه، بل العقل والسمع يدل على خلافه.

ومن كان أصل دينه الذي هو عنده دين الله ورسوله لا يعلم أن الرسول جاء به كان من أصل الناس في دينه.

* * *

الوجه الحادي عشر:

إنهم لما اعتقدوا أن هذا هو دين الإسلام، أخذوا يحتجون عليه بالحجج العقلية المعروفة لهم، وعمدتهم التي هي أعظم الحجج مبناها على امتناع حوادث لا أول لها، وبهذا اثبتوا حدوث كل موصوف لصبغة، وسموا ذلك إثباتا لحدوث الاجسام.

فلزمهم على ذلك نفس صفات الرب عز وجل، وأنه ليس له علم ولا قدرة ولا كلام يقوم به، بل كلامه مخلوق منفصل عنه، وكذلك رضاه وغضبه، والتزموا على ذلك أن الله لا يرى في الآخرة، وأنه ليس فوق العرش، إلى غير ذلك من اللوازم التي نفوا بها ما أثبته الله ورسوله.

وكان حقيقة قولهم تكذيبا لما جاء به الرسول ﷺ، وتسلط أهل العقول على تلك الحجج التي لهم فبينوا فسادها.

وكان ذلك مما سلط الدهرية القائلين بقدم العالم[1]، لما علموا حقيقة قولهم

---

(١) اختلف الفلاسفة في قدم العالم؛ فالذي استقر عليه، رأي جماهيرهم المتقدمين والمتأخرين، القول بقدمه، وأنه لم يزل موجوداً مع الله تعالى، ومعلولاً له، ومساوقاً له، غير متأخر عنه بالزمان، مساوقة المعلول للعلة، ومساوقة النور للشمس، وأن تقدم البارىء عليه، كتقدم العلة على المعلول، وهو تقدم بالذات والرتبة، لا بالزمان. وحكي عن أفلاطون أنه قال: العالم مكوّن محدث، ثم منهم من أوّل كلامه، وأبى أن يكون حدوث العالم معتقداً له.

وذهب جالينوس في آخره عمره في الكتاب الذي سماه «ما يعتقده جالينوس رأياً» إلى التوقف =

وأدلتهم، ونسوا فساده.

ثم لما ظنوا أن هذا قول رسول الله ﷺ، واعتقدوا أنه باطل، قالوا: إن الرسول لم يبين الحقائق، سواء علمها أو لم يعلمها، وإنما خاطب الجمهور بما يخيل لهم ما ينتفعون به.

فصار أولئك المتكلمون النفاة مخطئين في السمعيات[1] والعقليات، وصار خطؤهم من أكبر أسباب تسلط الفلاسفة، لما ظن أولئك الفلاسفة الدهرية أنه ليس في هذا المطلوب إلا قولان: قول أولئك المتكلمين، وقولهم، وقد رأوا أن قول أولئك باطل، فجعلوا ذلك حجة في تصحيح قولهم، مع أنه ليس للفلاسفة الدهرية على قولهم بقدم الأفلاك حجة عقلية أصلا، وكان من أعظم أسباب هذا أنهم لم يحققوا معرفة ما بعث الله به رسوله ﷺ.

* * *

الوجه الثاني عشر:

إن الغلط في معنى هذا الحديث هو من عدم المعرفة بنصوص الكتاب والسنة، بل المعقول الصريح، فإنه أوقع كثيرا من النظار وأتباعهم في الحيرة والضلال، فإنهم لم يعرفوا إلا قولين:

قول الدهرية القائلين بالقدم، وقول الجهمية القائلين بأنه لم يزل معطلا عن أن يفعل أو يتكلم بقدرته ومشيئته.

ورأوا لوازم كل قول تقتضي فساده وتناقضه، فبقوا حائرين مرتابين جاهلين،

= في هذه المسألة. وأنه لا يدري: العالم قديم أو محدث؟ وربما دل على أنه لا يمكن أن يعرف، وأن ذلك ليس لقصور فيه، بل لاستعصاء هذه المسألة في نفسها على العقول، ولكن هذا كالشاذ في مذهبهم، وإنما مذهب جميعهم أنه قديم، وأنه بالجملة لا يتصور أن يصدر حادث من قديم بغير واسطة أصلاً. (أنظر: تهافت الفلاسفة للغزالي ص ٨٨-٨٩).

(١) المقصود بالسمعيات هنا: نصوص الكتاب والسنة.

وهذه حال من لا يحصى منهم، ومنهم من صرح بذلك عن نفسه، كما صرح به الرازي[1] وغيره.

ومن أعظم أسباب ذلك أنهم نظروا في حقيقة قول الفلاسفة، فوجدوا أنه لم يزل المفعول المعين مقارنا للفاعل أزلا وأبدا، وصريح العقل يقتضي بأنه لا بد أن يتقدم الفاعل على فعله، وأن تقدير مفعول الفاعل مع تقدير أنه لم يزل مقارنا له، لم يتقدم الفاعل عليه، بل هو معه أزلا وأبدا، أمر يناقض صريح العقل.

وقد استقر في الفطر: أن كون الشيء المفعول مخلوقا يقتضي أنه كان بعد أن لم يكن، ولهذا كان ما أخبر الله به في كتابه من أنه خلق السموات والأرض بما يفهم جميع الخلائق أنهما حدثتا بعد أن لم يكونا.

وأما تقدير كونهما لم يزالا معه مع كونهما مخلوقين له، فهذا تنكره الفطر، ولم يقله إلا شرذمة قليلة من الدهرية، كابن سينا[2] وأمثاله.

وأما جمهور الفلاسفة الدهرية كأرسطو[3] وأتباعه فلا يقولون: إن الافلاك معلولة لعلة فاعلة كما يقوله هؤلاء، بل قولهم وإن كان أشد فسادا من قول متأخريهم فلم يخالفوا صريح المعقول في هذا المقام الذي خالفه هؤلاء.

وإن كانوا خالفوه من جهات أخرى، ونظروا في حقيقة قول أهل الكلام الجهمية والقدرية ومن اتبعهم، فوجدوا أن الفاعل صار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا من غير

---

(١) الفخر الرَّازي (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ = ١١٥٠ - ١٢١٠ م): الإمام المفسر. أوحد زمانه في المعقول وعلوم الأوائل. له مؤلفات قيمة معتبرة. طبقات الأطباء ٢: ٢٣ والوفيات ١: ٤٧٤ ومفتاح السعادة ١: ٤٤٥ - ٤٥١.

(٢) الرئيس ابن سينا (٣٧٠ - ٤٢٨ هـ = ٩٨٠ - ١٠٣٧ م): الفيلسوف الرئيس، صاحب التصانيف في الطب والمنطق والطبيعيات والإلهيات. وفيات الأعيان ١: ١٥٢ وتاريخ حكماء الإسلام ٢٧ - ٧٢ ودائرة المعارف الإسلامية ١: ٢٠٣ ولسان الميزان ٢: ٢٩١.

(٣) أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق. م): هو ثالث ثلاثة من أكبر الفلاسفة الذين عاشوا في اثينا وقدموا تعاليمهم فيها، وكان على الأرجح أول الفلاسفة المحترفين. حكمة الغرب لبرتراند رسل ١: ١٥١ والموسوعة الفلسفية ٣٢ والفلسفة عند اليونان ٢٤٣.

حدوث شيء أوجب كونه فاعلا، ورأوا صريح العقل يقضي بأنه إذا صار فاعلا بعد أن لم يكن فاعلا فلا بد من حدوث شيء [يوجب كونه فاعلا] وأنه يمتنع في العقل أن يصير ممكنا بعد أن كان ممتنعا بلا حدوث، وأنه لا سبب يوجب حصول وقت حدث وقت الحدوث، وأن حدوث جنس الوقت ممتنع.

فصاروا يظنون ـ إذا جمعوا بين هؤلاء ـ أنه يلزم الجمع بين النقيضين، وهو أن يكون الفاعل قبل الفعل، وأن يمتنع أن يصير فاعلا بعد أن لم يكن، فيكون الفعل معه، فيكون الفعل مقارنا غير مقارن، بأن كان بعد أن لم يكن حادثا مسبوقا بالعدم، وامتنع على هذا التقدير أن يكون فعل الفاعل مسبوقا بالعدم، ووجب على التقدير الأول أن يكون فعل الفاعل مسبوقا بالعدم، ووجدوا عقولهم تقصر بما يوجب هذا الإثبات، وما يوجب هذا النفي، والجمع بين النقيضين ممتنع، فأوقعهم ذلك في الحيرة والشك.

ومن أسباب ذلك: أنهم لم يعرفوا حقيقة السمع والعقل. فلم يعرفوا ما دل عليه الكتاب والسنة، ولم يميزوا في المعقولات بين المشتبهات، وذلك أن العقل يفرق بين كون المتكلم متكلما بشيء بعد شيء دائما، وكون الفاعل يفعل شيئا بعد شيء دائما، وبين آحاد الفعل والكلام فيقول:

كل واحد من أفعاله لا بد أن يكون مسبوقا بالفاعل، وأن يكون مسبوقا بالعدم، ويمتنع كون الفعل المعين مع الفاعل أزلا وأبدا. وأما كون الفاعل لم يزل يفعل فعلا بعد فعل فهذا من كمال الفاعل.

فإذا كان الفاعل حيا، وقيل: إن الحياة مستلزمة الفعل والحركة كما قال ذلك أئمة الحديث، كالبخاري[1]، والدارمي[2]، وغيرهما، وأنه لم يزل متكلما إذا شاء،

---

(١) محمد بن إسماعيل البخاري (١٩٤ ـ ٢٥٦ هـ = ٨١٠ ـ ٨٧٠ م): حبر الإسلام، والحافظ لحديث رسول الله (ﷺ)، صاحب الجامع الصحيح المعروف بصحيح البخاري. تذكرة الحفاظ ٢: ١٢٢ وتهذيب التهذيب ٩: ٤٧ والوفيات ١: ٤٥٥ والسبكي ٢: ٢.

(٢) عبدالله بن عبد الرحمن الدَّارمي (١٨١ ـ ٢٥٥ هـ = ٧٩٧ ـ ٨٦٩ م): من حفاظ الحديث. وكان عاقلاً فاضلاً مفسراً فقيهاً. له «الجامع الصحيح» المعروف بـ «سنن =

وبما شاء، ونحو ذلك، كما قاله ابن المبارك[1]، وأحمد[2]، وغيرهما من أئمة الحديث والسنة ـ كان كونه متكلما أو فاعلا من لوازم حياته، وحياته لازمة له، فلم يزل متكلما فعالا، مع العلم بأن الحي يتكلم ويفعل بمشيئته وقدرته، وأن ذلك يوجب وجود كلام بعد كلام، وفعل بعد فعل.

فالفاعل يتقدم على فعل من أفعاله، وذلك يوجب أن كل ما سواه محدث مخلوق. ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة فقدر حتى خلقه، والذي ليس له قدرة هو عاجز، ولكن نقول: لم يزل الله عالما قادرا مالكا، لا شبه له ولا كيف.[3]

فليس مع الله شيء من مفعولاته قديم معه، لا، بل هو خالق كل شيء، وكل ما سواه مخلوق له، وكل مخلوق محدث كائن بعد أن لم يكن، وإن قدر أنه لم يزل خالقا فعالا.

= الدارمي». تذكرة الحفاظ ٢: ١٠٥ وتهذيب التهذيب ٥: ٢٩٤.

(١) عبدالله بن المبارك (١١٨ ـ ١٨١ هـ = ٧٣٦ ـ ٧٩٧ م): الحافظ، شيخ الإسلام، المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات. تذكرة الحفاظ ١: ٢٥٣ ومفتاح السعادة ٢: ١١٢ وحلية ٨: ١٦٢ وذيل المذيل ١٠٧.

(٢) الإمام أحمد بن حنبل (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ = ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م): إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة. له «المسند» يحتوي على ثلاثين ألف حديث. ابن عساكر ٢: ٢٨ وصفة الصفوة ٢: ١٩٠ وتاريخ بغداد ٤: ٤١٢.

(٣) وقال في موضع آخر: فقلنا قد أعظمتم على الله الفرية حتى زعمتم إنه لا يتكلم، فشبهتموه بالأصنام التي تعبد من دون الله، لأن الأصنام لا تتكلم، ولا تتحرك، ولا تزول من مكان إلى مكان. فلما ظهرت عليه الحجة قال: إن الله قد يتكلم، ولكن كلامه مخلوق، وكذلك بنو آدم كلامهم مخلوق، فقد شبهتم الله بخلقه حين زعمتم إن كلامه مخلوق، ففي مذهبكم قد كان في وقت من الأوقات لا يتكلم حتى خلق التكلم.
وكذلك بنو آدم، كانوا لا يتكلمون حتى خلق لهم كلاماً. فتعالى الله عن هذه الصفة، بل انه لم يزل متكلماً إذا شاء. ولا نقول إنه كان لا يعلم حتى خلق علماً فعلم. ولا نقول إنه كان، ولا قدرة له حتى خلق لنفسه قدرة، ثم ساق كلامه رضي الله عنه.

وإذا قيل: إن الخلق صفة كمال لقوله تعالى:

﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾[1]

أفلا أمكن أن تكون خالقيته دائمة، وكل مخلوق له محدث مسبوق بالعدم، وليس مع الله شيء قديم؟

وهذا أبلغ في الكمال من أن يكون معطلا، غير قادر على الفعل، ثم يصير قادرا، والفعل ممكنا له بلا سبب.

وأما جعل المفعول المعين مقارنا له أزلا وأبدا فهذا في الحقيقة تعطيل لخلقه وفعله، فإن كون الفاعل مقارنا لمفعوله أبدا وأزلا مخالف لصريح المعقول.

فهؤلاء الفلاسفة الدهرية وإن ادعوا أنهم يثبتون دوام الفاعلية فهم في الحقيقة معطلون للفاعلية، وهي الصفة التي هي اظهر صفات الرب تعالى، ولهذا وقع الإخبار بها في أول ما نزل على الرسول ﷺ، فإن أوله:
﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[2]

فأطلق الخلق، ثم خص الإنسان، وأطلق التعليم، ثم خص التعليم بالقلم، والخلق يتضمن فعله، والتعليم يتضمن قوله، فإنه يعلم بتكليمه، وتكليمه بالإيماء. وبالتكلم من وراء الحجاب، وبإرسال رسول يوحي بإذنه ما يشاء، قال تعالى:

﴿وعلمك ما لم تكن تعلم﴾[3]

وقال تعالى:

﴿فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم﴾[4]

---

(١) سورة النحل: آية ١٧.
(٢) سورة العلق: ١، ٢، ٣، ٤، ٥. (٣) سورة النساء: آية ١١٣.
(٤) سورة آل عمران: آية ٦١.

وقال تعالى :

﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضي إليك وحيه وقل رب زدني علما﴾[1]

وقال تعالى :

﴿الرحمن. علم القرآن. خلق الإنسان. علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان﴾[2]

وهؤلاء الفلاسفة يتضمن قولهم في الحقيقة أن لم يخلق ولم يعلم، فإن ما يثبتونه من الخلق والتعليم إنما يتضمن التعطيل، فإنه على قولهم لم يزل الفلك مقارنا له أزلا وأبدا، فامتنع حينئذ أن يكون مفعولا له، فإن الفاعل لا بد أن يتقدم على فعله.

وعندهم أنه لا يعلم شيئا من جزئيات العلم، والتعليم فرع العلم، فمن لم يعلم الجزئيات يمتنع أن يعلمها غيره، وكل موجود فهو جزئي، لا كلي، كذا الكليات إنما وجودها في الأذهان لا في الأعيان، فإذا لم يعلم شيئا من الجزئيات، لم يعلم شيئا من الموجودات، فامتنع أن يعلم غيره شيئا من العلم بالموجودات المعينة.

ومنهم من قال: لا يعلم لا كليا ولا جزئيا، فقوله أقبح.

ومن قال: يعلم الكليات الثابتة دون المتغيرة فهو عندهم لا يعلم شيئا من الحوادث، ويعلمها لأحد من خلقه، كما يقتضي قولهم أنه لم يخلقها. فعلى قولهم لا خلق ولا علم.

وهذا حقيقة قول مقدمهم أرسطو، فإنه لم يثبت أن الرب مبدع للعالم، ولا جعله علة فاعلة، بل الذي أثبته أنه علة غائبة، يتحرك الفلك لتشبه به كتحريك

---

(١) سورة طه: آية ١١٤.

(٢) سورة الرحمن: ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

المعشوق للعاشق، وصرح بأنه لا يعلم الأشياء، فعنده لا خلق ولا علم.[1]

وأول ما أنزل الله على نبيه محمد ﷺ:

﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق. اقرأ وربك الأكرم. الذي علم بالقلم. علم الإنسان ما لم يعلم﴾[2].

الوجه الثالث عشر:

أن الله تعالى أرسل الرسل، وأنزل الكتب لدعوة الخلق إلى عبادته، وحده لا شريك له، وذلك يتضمن معرفة لما أبدعه من مخلوقاته، وهي المخلوقات المشهودة الموجودة، من السموات والأرض وما بينهما.

فأخبر الكتاب الذي لم يأت من عنده كتاب أهدى منه: أنه خلق أصول هذه المخلوقات الموجودة المشهودة في ستة أيام، ثم استوى على العرش.

وشرع لأهل الإيمان[3] أن يجتمعوا كل أسبوع يوماً يعبدون الله فيه، ويحتفلون بذلك، ويكون ذلك آية على الأسبوع الأول الذي خلق الله فيه السموات والأرض.

ولما لم يعرف الأسبوع إلا بخبر الأنبياء، فقد جاء في لغتهم عليهم السلام أسماء أيام الأسبوع، والنفس تتبع النصوص، والاسم يعبر عما تصوره، فلما كان تصور اليوم والشهر والحول معروفاً بالفعل تصورت ذلك الإسم، وعبرت عن ذلك.

وأما الأسبوع فلما لم يكن في مجرد العقل ما يوجب معرفة، فإنما عرف بالسمع، صارت معرفته عند أهل السمع المتلقين عن الأنبياء دون غيرهم.

---

(١) قد رد الغزالي رحمه الله على هذا الإدعاء ردوداً قوية في كتابه العظيم «تهافت الفلاسفة». ص ١٩٩ ـ ٢١٧، طبعة دار المعارف، الطبعة السادسة.

(٢) سورة العلق: ١، ٢، ٣، ٤، ٥.

(٣) في الأصل: شرع أهل الإيمان. وما أوردناه أوضح.

وحينئذ أخبروا الناس بخلق هذا العالم الموجود المشهود، وابتداء خلقه، وأنه خلقه في ستة أيام. وأما ما خلقه قبل ذلك شيئاً بعد شيء، فهذا بمنزلة ما سيخلقه بعد قيام القيامة، ودخول أهل الجنة وأهل النار منازلهما، وهذا مما لا سبيل للعباد إلى معرفته تفصيلاً.

ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «قام فينا رسول الله ﷺ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق، حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم»[1]. رواه البخاري.

فالنبي ﷺ أخبرهم ببدء الخلق إلى دخول أهل الجنة والنار منازلهما.

وقوله «بدء الخلق» مثل قوله في الحديث الآخر: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»[2].

فإن الخلائق هنا المراد بها: الخلائق المخلوقة بعد خلق العرش، وكونه على الماء.

ولهذا كان التقدير للمخلوقات هو التقدير لخلق هذا العالم، كما في حديث القلم، وأن الله لما خلقه قال له: «أكتب». قال: وماذا أكتب؟ قال: «أكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[3].

وكذلك في الحديث الصحيح الآخر «كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق السموات والأرض»[4]. يراد به أنه كتب كل ما أراد خلقه من ذلك، فإنه لفظ (كل شيء) يعم في كل موضع بحسب ما سيقت له، كما في قوله تعالى:

﴿بكل شيء عليم ـ على كل شيء قدير﴾[5].

---

(١) رواه البخاري في كتاب بدء الخلق ٢ : ٢٠٧، وتمامه: «... حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه».

(٢) سبق إخراجه. (٣) سبق إخراجه. (٤) سبق إخراجه.

(٥) سورة البقرة: ٢٩ ـ ٢٠.

وقوله:

﴿الله خالق كل شيء﴾(1).

﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شيء﴾(2).

﴿وأوتيت من كل شيء﴾(3).

﴿فتحنا عليهم أبواب كل شيء﴾(4).

﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾(5).

وأخبرت الرسل بتقدم أسمائه وصفاته، كما في قوله:

﴿وكان الله عزيزاً حكيماً ـ سميعاً بصيراً غفوراً رحيماً﴾(6).

وأمثال ذلك.

قال ابن عباس(7): «كان ولا يزال». ولم يقيد كونه بوقت دون وقت، ويمتنع أن يحدث له غيره صفة، بل يمتنع توقف شيء من لوازمه على غيره سبحانه، فهو المستحق لغاية الكمال، وذاته هي المستوجبة لذلك، فلا يتوقف شيء من كماله ولوازم كماله على غيره.

بل نفسه المقدسة، وهو المحمود على ذلك أزلاً وأبداً، وهو الذي يحمد نفسه، ويثني عليها بما تستحقه، وأما غيره فلا يحصى ثناء عليه، بل هو نفسه كما أثنى على نفسه، كما قال سيد ولد آدم في الحديث الصحيح: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبما فاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(8).

---

(1) سورة الزمر: آية ٦٢. (2) سورة الأحقاف: آية ٢٥.

(3) سورة النمل: آية ٢٣. (4) سورة الأنعام: آية ٤٤.

(5) سورة الذاريات: آية ٤٩.

(6) سورة الفتح: آية ١٩، سورة النساء: آية ٥٨، سورة النساء: آية ٢٣.

(7) عبدالله بن عباس (٣ ق هـ ـ ٦٨ هـ = ٦١٩ ـ ٦٨٧ م): حبر الأمة، الصحابي الجليل. له في الصحيحين وغيرهما. ١٦٦ حديثاً. وينسب له كتاب في «تفسير القرآن» جمعه بعض أهل العلم. صفة الصفوة ١: ٣١٤ والإصابة، ت ٤٧٧٢، وذيل المذيل ٢١ والأعلام ٤: ٩٥.

(8) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب الصلاة حديث: ٢٢٢. وأبو داود في سننه في كتاب =

وإذا قيل: لم يكن متكلماً ثم تكلم، أو قيل: كان الكلام ممتنعاً ثم صار ممكناً له، كان هذا ـ مع وصفه له بالنقص في الأزل، وأنه تجدد له الكمال، ومع تشبيهه بالمخلوق الذي ينتقل من النقص إلى الكمال ـ ممتنعاً، من جهة أن الممتنع لا يصير ممكناً بلا سبب، والعدم المحصن لا شيء فيه [من السلبية]، فامتنع أن يكون الممتنع فيه يصير ممكناً بلا سبب حادث.

وكذلك إذا قيل: كلامه كله معنى واحد، لازم لذاته، ليس له فيه قدرة ولا مشيئة، كان هذا في الحقيقة تعطيلاً للكلام، وجمعاً بين المتناقضين، إذ هو إثبات لموجود لا حقيقة له، بل يمتنع أن يكون موجوداً، مع أنه لا مدح فيه ولا كمال.

وكذلك إذا قيل: كلام قديم العين، وهو حروف وأصوات قديمة لازمة لذاته، ليس فيه قدرة ولا مشيئة، كان هذا مع ما يظهر من تناقضه وفساده في المعقول لا كمال فيه، إذ لا يتكلم بمشيئته ولا قدرته ولا إذا شاءه.

أما قول من يقول: ليس كلامه إلا ما يخلقه في غيره، فهذا تعطيل للكلام من كل وجه. وحقيقته أنه لا يتكلم، كما قال ذلك قدماء الجهمية[1]، وهو سلب للصفات،

= الصلاة باب ١٤٨، وفي كتاب الوتر باب: ٥. والترمذي في سننه في كتاب الدعوات باب ١١٢. والنسائي في سننه في كتاب الطهارة باب: ١١٩، وكتاب السهو باب: ٨٩. وابن ماجة في سننه في كتاب الدعاء باب: ٣. والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ١/٩٦، ١١٨، ١٥٠؛ ٦/٥٨، ٢٠١. وهو حديث صحيح.

(١) الجهمية: هي طائفة منسوبة لجهم بن صفوان الذي قال بنفي الصفات، وذهب إلى أنه لا يجوز أن يوصف الله تعالى بصفة يوصف بها خلقه، لأن ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه قادراً فاعلاً خالقاً، لأنه لا يوصف شيء من خلقه بالقدرة والفعل والخلق. ولما جاء المعتزلة، أخذوا عن جهم وأتباعه فكرة نفي الصفات، ومن هنا لقبهم خصومهم وخاصة ابن تيمية وابن القيم بالجهمية لموافقتهم لهم في هذا الصدد، وقد رفض المعتزلة هذه التسمية وتبرأوا من الجهمية، لأن الجهمية كانت تقول بالجبر، وهذا عكس المعتزلة التي تقول بحرية الإرادة الإنسانية. (انظر مزيداً من التفاصيل عند: الشهرستاني: الملل والنحل، جـ ١، ص ٨٦. والتفتازاني: علم الكلام، ص ١١٢، والمقريزي: الخطط، جـ ٤، ١٨٢).

إذ فيه من التناقض والفساد حيث أثبتوا الكلام المعروف، ونفوا لوازمه ما يظهر به أنه من أفسد أقوال العالمين، بأنهم أثبتوا أنه يأمر وينهي، ويخبر ويبشر، وينذر وينادي، من غير أن يقوم به شيء من ذلك.

كما قالوا: إنه يريد ويحب ويبغض ويغضب، من غير أن يقوم به شيء من ذلك، وفي هذا من مخالفة صريح المعقول، وصحيح المنقول ما هو مذكور في غير هذا الموضع.

وأما القائلون بقدم هذا العالم، فهم أبعد عن المعقول والمنقول من جميع الطوائف. ولهذا أنكروا الكلام القائم بذاته، والذي يخلقه في غيره، ولم يكن كلامه عندهم إلا ما يحدث في النفوس من المعقولات والمتخيلات، وهذا معنى تكليمه لموسى عليه السلام عندهم.

فعاد التكليم إلى مجرد علم المكلم. ثم إذا قالوا مع ذلك: إنه لا يعلم الجزئيات، فلا علم ولا إعلام، وهذا غاية التعطيل والنقص.

وهم ليس لهم دليل قط على قدم شيء من العالم، بل حججهم إنما تدل على قدم نوع الفعل، وأنه لم يزل الفاعل فاعلاً، ولم يزل لفعله مدة، أو أنه لم يزل للمادة مادة.

وليس في شيء من أدلتهم ما يدل على قدم الفلك، ولا قدم شيء من حركاته، ولا قدم الزمان الذي هو مقدار حركة الفلك.

والرسل أخبرت بخلق الأفلاك، وخلق الزمان، الذي هو مقدار حركتها، مع إخبارها بأنها خلقت من مادة قبل ذلك، وفي زمان قبل هذا الزمان، فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام. وسواء قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدرة بطلوع الشمس وغروبها، أو قيل: إنها أكبر منها، كما قال بعضهم إن كل يوم قدره ألف سنة، فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة الأفلاك.

وتلك الأيام مقدرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض.

وقد أخبر سبحانه أنه:

﴿استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين﴾(١).

فخلقت من الدخان، وقد جاءت الآثار عن السلف أنها خلقت من بخار الماء، وهو الماء الذي كان العرش عليه، المذكور في قوله:

﴿وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء﴾(٢).

فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض في مدة، ومن مادة، ولم يذكر القرآن خلق شيء من لا شيء، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئاً، كما قال:

﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾(٣).

مع إخباره أنه خلقه من نطفة.

و [أما] قوله:

﴿أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون﴾(٤).

ففيها قولان:

فالأكثرون على أنه المراد: أم خلقوا من غير خالق، بل من العدم المحصن؟

كما قال تعالى:

﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه﴾(٥).

وكما قال تعالى:

﴿وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه﴾(٦).

وقال تعالى:

﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾(٧).

وقيل: أم خلقوا من غير مادة، وهو ضعيف، لقوله بعد ذلك: (أم هم الخالقون).

---

(١) سورة فصلت: آية ١١.
(٢) سورة هود: آية ٧.
(٣) سورة مريم: آية ٩.
(٤) سورة الطور: آية ٣٥.
(٥) سورة الجاثية: آية ١٣.
(٦) سورة النساء: آية ١٧١.
(٧) سورة النحل: آية ٥٣.

فدل على أن التقسيم: أم خلقوا من غير خالق، أم هم الخالقون؟ ولو كان المراد: من غير مادة، لقال: أم خلقوا من غير شيء أم من ماء مهين؟ فدل على أن المراد: أنا خالقهم لا مادتهم.

ولأن كونهم خلقوا من غير مادة ليس فيه تعطيل وجود الخالق، فلوظنوا ذلك لم يقدح في إيمانهم بالخالق، بل دل على جهلهم، ولأنهم لم يظنوا ذلك، ولا يوسوس الشيطان لابن آدم بذلك، بل كلهم يعرفون أنهم خلقوا من آبائهم وأمهاتهم.

ولأن اعترافهم بذلك لا يوجب إيمانهم، ولا يمنع كفرهم، والاستفهام استفهام إنكار، مقصوده تقريرهم أنهم لم يخلقوا من غير شيء. فإذا أقروا بأن خالقاً خلقهم نفعهم ذلك، وأما إذا أقروا بأنهم خلقوا من مادة لم يغن ذلك عنهم من الله شيئاً.

* * *

الوجه الرابع عشر:

أن الإقرار بأن الله لم يزل يفعل ما يشاء، ويتكلم بما يشاء، هو وصف الكمال الذي يليق به، وما سوى ذلك نقص يجب نفيه عنه، فإن كونه لم يكن قادراً ثم صار قادراً على الكلام أو الفعل مع أنه وصف له فإنه يقتضي أنه كان ناقصاً عن صفة القدرة التي هي من لوازم ذاته، والتي هي من أظهر صفات الكمال، فهو ممتنع في العقل بالبرهان اليقيني.

فإنه إذا لم يكن قادراً ثم صار قادراً فلا بد من أمر جعله قادراً بعد أن لم يكن، وكذلك يمتنع أن يصير عالماً بعد أن لم يكن قبل هذا، بخلاف الإنسان، فإنه كان غير عالم ولا قادر، ثم جعله غيره عالماً قادراً، وكذلك إذا قالوا: كان غير متكلم ثم صار متكلماً.

وهذا مما أورده الإمام أحمد على الجهمية، إذ جعلوه كان غير متكلم ثم صار متكلماً كالإنسان. قال: فقد جمعتم بين تشبيه وكفر. وقد حكيت ألفاظه من غير هذا الموضع.

وإذا قال القائل: كان في الأزل [1] قادراً على أن يخلق فيما لا يزال، كان هذا كلاماً متناقضاً، لأنه في الأزل عندهم لم يكن يمكنه أن يفعل، ومن لم يمكنه الفعل في الأزل امتنع أن يكون قادراً في الأزل، فإن الجمع بين كونه قادراً وبين كون المقدور ممتنعاً جمع بين الضدين، فإنه في حال امتناع الفعل لم يكن قادراً.

وأيضاً يكون الفعل ينتقل من كونه ممتنعاً إلى كونه ممكناً بغير سبب موجب يحدد ذلك ممتنع.

وأيضاً فما من حال يقدرها العقل إلا والفعل فيها ممكن وهو قادر. وإذا قدر قبل ذلك شيئاً شاءه الله فالأمر كذلك، فلم يزل قادراً والفعل ممكن، وليس لقدرته وتمكينه من الفعل أول، فلم يزل قادراً يمكنه أن يفعل، فلم يكن الفعل ممتنعاً عليه قط.

وأيضاً فإنهم يزعمون أنه يمتنع في الأزل، والأزل ليس شيئاً محدوداً يقف عنده العقل، بل ما من غاية ينتهي إليها تقدير الفعل إلا والأزل قبل ذلك، بلا غاية محدودة.

حتى لو فرض وجود مدائن أضعاف مدائن الأرض، في كل مدينة من الخردل ما يملؤها، وقد أنه كلما مضت ألف آلف سنة فنيت خردلة ـ فني الخردل كله، والأزل لم ينته، ولو قدر أضعاف ذلك أضعافاً لا ينتهي.

فما من وقت يقدر إلا والأزل قبل ذلك، وما من وقت صدر فيه الفعل إلا وقد كان قبل ذلك ممكناً، وإذا كان ممكناً فما الموجب لتخصيص حال الفعل بالخلق دون ما قبل ذلك فيما لا يتناهى.

وأيضاً فالأزل معناه عدم الأولية، ليس الأزل شيئاً محدوداً، فقولنا: لم يزل

---

(١) الأزل: هو استمرار الوجود في أزمنة ماضية لا متناهية، فهو لا أول له، ويقابل الأبد الذي هو استمرار الوجود في أزمنة مستقبلة لا متناهية، فهو لا آخر له، ولا يطرأ عليه العدم، والله أزلي أبدي أو بعبارة أخرى سرمدي.
المعجم الفلسفي، اصدار مجمع اللغة العربية، ص ١ ـ ٩.

قادراً، بمنزلة قولنا: هو قادر دائماً، وكونه قادراً وصف دائم لا ابتداء له.

فكذلك إذا قيل: لم يزل متكلماً إذا شاء، ولم يزل يفعل ما شاء، يقتضي دوام كونه متكلماً أو فاعلاً بمشيئته وقدرته.

وإذا ظن الظان أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوره، فإنه إذا كان خالق كل شيء، فكل ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم، فليس معه شيء قديم بقدمه.

وإذا قيل: لم يزل يخلق، كان معناه: لم يزل يخلق مخلوقاً بعد مخلوق، كما لا يزال في الأبد يخلق مخلوقاً بعد مخلوق. نفي ما ننفيه من الحوادث والحركات شيئاً بعد شيء، وليس في ذلك إلا وصفه بدوام الفعل، لا بأن معه مفعولاً من المفعولات بعينه.

وإن قدر أن نوعها لم يزل معه، فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل. بل هي من كماله.

قال تعالى:

﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون﴾[1].

والخلق لا يزالون معه، وليس في كونهم لا يزالون معه في المسستقبل ما ينافي كماله، وبين الأزل في المستقبل، مع أنه في الماضي حدث بعد أن لم يكن. إذ كان كل مخلوق فله إبتداء، ولا نجزم أن يكون له إنتهاء.

وهذا فرق في أعيان المخلوقات، وهو فرق صحيح. لكنه يشتبه على كثير من الناس النوع بالعين، كما إشتبه ذلك على كثير من الناس في الكلام. فلم يفرقوا بين كون كلامه قديماً ـ بمعنى أنه لم يزل متكلماً إذا شاء ـ وبين كون الكلام المعين قديماً، وكذلك لم يفرقوا بين كون الفعل المعين قديماً والشيء المعين قديماً كالفلك محدث مخلوق مسبوق بالعدم وكذلك كل ما سواه.

---

(١) سورة النحل: آية ١٧.

وهذا الذي دل عليه الكتاب. والسنة والآثار، وهو الذي تدل عليه المعقولات الصريحة الخالصة من الشبه. كما قد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع، وبينا مطابقة العقل الصريح للنقل الصحيح.

وإن من غلط أهل الفلسفة والكلام أو غيرهم. فإنما هو لغلط فيهما، أو في أحدهما. وإلا فالقول الصدق المعلوم بعقل أو سمع يصدق بعضه بعضاً، لا يكذب بعضه بعضاً.

قال تعالى:

﴿والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون﴾[1]

بعد قوله:

﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه﴾[2].

وإنما مدح من جاء بالصدق، وصدق بالحق الذي جاءه. وهذه حال من لم يقبل إلا الصدق، ولم يرد ما يجيئه به غيره من الصدق، بل قبله، ولم يعارض بينهما، ولم يدفع أحدهما بالآخر. وحال من كذب على الله، ونسب إليه بالسمع أو العقل ما لا يصح نسبته إليه، أو كذب بالحق لما جاءه، فكذب من جاء بحق معلوم من سمع أو عقل.

وقال تعالى عن أهل النار:

﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾[3].

فأخبرانه لو حصل لهم سمع أو عقل ما دخلوا النار.

وقال تعالى:

﴿أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها. فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور﴾[4].

---

(١) سورة الزمر: آية ٣٣.

(٢) العنكبوت: ٦٨. وآية: (والذي جاء بالصدق..) ليست بعد آية: (ومن أظلم ممن افترى..). وإنما هي بعد قوله تعالى: (فمن أظلم ممَّن كذب على الله وكذَّب بالصدق إذ جاءه، أليس في جهنم مثوى للكافرين).

(٣) سورة الملك: آية ١٠. (٤) سورة الحج: آية ٤٦.

وقال تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾[1].

أي أن القرآن حق، فأخبر أنه سيرى عباده الآيات المشهودة المخلوقة حتى يتبين أن الآيات المتلوة المسموعة حق.

ومما يعرف به منشأ غلط هاتين الطائفتين، غلطهم في الحركة والحدوث، ومسمى ذلك.

فطائفه كأرسطو[2] وأتباعه قالت: لا يعقل أن يكون جنس الحركة والزمان والحوادث حادثاً، وأن يكون مبدأ كل حركة وحادث صار فاعلاً لذلك بعد أن لم يكن. وأن يكون الزمان حادثاً بعد ان لم يكن حادثاً، مع أن قبل وبعد لا يكون إلا في زمان.

وهذه القضايا كلها انما تصدق كلية، لا تصدق معينة؛ ثم ظنوا ان الحركة المعينة ـ وهي حركة الفلك ـ هي القديمة الأزلية، وزمانها قديم، فضلوا ضلالاً مبيناً، مخالفاً لصحيح المنقول المتواتر عن الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، مع مخالفته لصريح المعقول الذي عليه جمهور العقلاء من الأولين والآخرين.

وطائفه ظنوا أنه لا يمكن أن يكون جنس الحركة والحوادث والفعل إلا بعد أن لم يكن شيء من ذلك، أو أنه يجب أن يكون فاعل الجميع لم يزل معطلاً ثم حدثت الحوادث بلا سبب أصلاً، وانتقل الفعل من الإمتناع إلى الإمكان بلا سبب، وصار قادراً بعد أن لم يكن سبب، وكان الشيء بعدما ما لم يكن في غير زمان. وأمثال ذلك مما يخالف صريح العقل.

وهم يظنون مع ذلك أن هذا قول أهل الملك من المسلمين واليهود والنصارى. وليس هذا القول منقولاً عن موسى، ولا عيسى، ولا محمد صلوات الله عليهم وسلامه، ولا عن أحد من أصحابهم. إنما هو مما أحدثه بعض أهل البدع، وإنتشر

---

(١) سورة فصلت: آية ٥٣. (٢) سبقت ترجمته.

عند الجهال بحقيقة أقوال الرسل وأصحابهم، فظنوا ان هذا قول الرسل صلى الله عليهم وسلم.

وصار نسبة هذا القول إلى الرسل وأتباعهم يوجب القدح فيهم، إما بعدم المعرفة بالحق في هذه المطالب العالية، وإما بعدم بيان الحق. وكل منهما يوجب عند هؤلاء أن يعزلوا الكتاب والسنة وآثار السلف عن الإهتداء.

وإنما ضلوا لعدم علمهم بما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، والتابعون لهم باحسان. بأن الله تعالى أرسل رسوله ﷺ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً.

فهارس الكتاب

١ ـ فهرس الأحاديث.
٢ ـ فهرس الأعلام.
٣ ـ فهرس المراجع ومصادر التحقيق.
٤ ـ فهرس الموضوعات.

فهرس الأحاديث

الحديث	الصفحة
١٦ ـ حديث: إنقلاع النخل له ﷺ وعوده إلى مكانه	٣٨
١٧ ـ حديث: انشقاق القمر	٣٧
١٧ ـ أنتم شهداء الله في الأرض	٣٢
١٨ ـ حديث: إهتزاز الجبل تحت الرسول ﷺ	٣٨
١٩ ـ أول ما خلق الله القلم، فقال له: أكتب. قال: وما اكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة	٩٣
٢٠ ـ أيأمنني من في السماء ولا تأمنوني؟	٦١

(ت)

٢١ ـ حديث: تكثيره ﷺ للطعام غير مرة في قصة الخندق	٣٨
٢٢ ـ حديث: تكثير الماء في عين تبوك	٣٨
٢٣ ـ حديث: تكثير الماء في عين الحديبية	٣٨
٢٤ ـ حديث: تكثيره ﷺ للطعام غير مرة في أسفاره	٣٨

(جـ)

٢٥ ـ حديث: جراب أبي هريرة	٣٨

(خـ)

٢٦ ـ خبت وخسرت إن لم أعدل	٦١
٢٧ ـ خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم	١٠٠

(ر)

٢٨ ـ حديث: رد الشمس ليوشع بن نون	٣٦
٢٩ ـ حديث: رد الشمس لما فاتت علياً الصلاة والنبي ﷺ نائم في - جره	٣٦
٣٠ ـ حديث: الرمي بالنجوم	٣٧

الصفحة — الحديث

(س)

(ق)

(ل)

(م)

(ن)

الحديث | الصفحة

فهرس الأعلام

الإسم	الصفحة

مصادر التحقيق

١ - القران الكريم.
٢ - الكتاب المقدس.
٣ - المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
٤ - المعجم المفهرس لألفاظ الحديث.
٥ - صحيح مسلم.
٦ - صحيح البخاري.
٧ - سنن الترمذي.
٨ - سنن أبي داود.
٩ - سنن النسائي.
١٠ - سنن ابن ماجة.
١١ - صحيح ابن حبان.
١٢ - مسند الإمام أحمد بن حنبل.
١٣ - مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للهيثمي.
١٤ - موارد الظمآن فيزوائدابن حبان: للهيثمي.
١٥ - نوادر الأصول: للحكيم الترمذي.
١٦ - دلائل النبوة: للبيهقي.
١٧ - المستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري.
١٨ - التاريخ الكبير: للبخاري.
١٩ - تاريخ الأمم والملوك: لابن جرير الطبري.

٢٠ ـ تاريخ دمشق: لابن عساكر.
٢١ ـ البداية والنهاية: لابن كثير.
٢٢ ـ حلية الأولياء: للأصبهاني.
٢٣ ـ صفوة الصفوة: لابن الجوزي.
٢٤ ـ الأعلام: للزركلي.
٢٥ ـ وفيات الأعيان: لابن خلكان.
٢٦ ـ شذرات الذهب: لابن العماد.
٢٧ ـ ميزان الاعتدال: للذهبي.
٢٨ ـ مرقاة المفاتيح في شرح مشكاة المصابيح: الملا علي القاري.
٢٩ ـ تذكرة الحفاظ: للذهبي.
٣٠ ـ تهذيب التهذيب: لابن حجر.
٣١ ـ لسان الميزان: لابن حجر العسقلاني.
٣٢ ـ لسان العرب: لإبن منظور.
٣٣ ـ المقاصد الحسنة: للسخاوي.
٣٤ ـ لقط اللآليء المتناثرة في الأحاديث المتواترة: للزبيدي، بتحقيق الأستاذ محمد عبد القادر عطا.
٣٥ ـ الجامع الصغير: السيوطي.
٣٦ ـ الكنى والأسماء: للدولابي.
٣٧ ـ المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: لابن حجر.
٣٨ ـ المعجم الوسيط: إعداد مجمع اللغة العربية.
٣٩ ـ الموطأ: للإمام مالك بن أنس.
٤٠ ـ الكواكب الدرية:
٤١ ـ القول الجلي:
٤٢ ـ العقود الدرية:
٤٣ ـ ابن تيمية: الشيخ عبد العزيز المراغي.
٤٤ ـ العقيدة والشريعة:

٤٥ ـ رسائل إخوان الصفا: لأحمد زكي باشا.
٤٦ ـ الكامل: لابن الأثير.
٤٧ ـ حسن المحاضرة: السيوطي.
٤٨ ـ الملل والنحل: للشهرستاني.
٤٩ ـ الفصل في الملل والنحل: لابن حزم.
٥٠ ـ الفتوحات المكية: لابن عربي.
٥١ ـ مقدمة في أصول التفسير: لابن تيمية.
٥٢ ـ إحياء علوم الدين: للغزالي.
٥٣ ـ موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول: لابن تيمية.
٥٤ ـ دفع شبه التشبيه والرد على المجسمة: لابن الجوزي.
٥٥ ـ الإكليل في المتشابه والتأويل.
٥٦ ـ إلجام العوام في علم الكلام: للغزالي.
٥٧ ـ الإيمان: لابن تيمية.
٥٨ ـ ابن تيمية، حياته وعصره: للإمام محمد أبو زهرة.
٥٩ ـ الطبقات الكبرى: للشعراني.
٦٠ ـ طبقات الصوفية:
٦١ ـ دائرة المعارف: البستاني.
٦٢ ـ الروض الأنق:
٦٣ ـ سيرة ابن هشام:
٦٤ ـ الموسوعة الفلسفية.
٦٥ ـ علم الكلام: التفتازاني.
٦٦ ـ الخطط: المقريزي.
٦٧ ـ المعجم الفلسفي.
٦٨ ـ تسخير الجن وكرامات الأولياء: للشيخ محمد متولي الشعراوي.

فهرس الموضوعات

يطلب من: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
هاتف: ٨٠١٣٣٢ - ٨٠٥٦٠٤ - ٨٠٠٨٤٢
ص.ب: ١١/٩٤٢٤ تلكس: Nasher 41245 Le

مطابع يوسف بيضون
هاتف ٨٣٠٩٤٠ - بيروت - لبنان